سعود السنعوسي

حَمَامُ الدَّار

أحجِيَة ابن أزرق

رواية



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حَمَامُ الدَّار

أُحجِيَة ابن أزرق

حَمَامُ الدَّار

أُحجِيَة ابن أزرق

رواية

سعود السنعوسي

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2017 م - 1439 هـ
الطبعة الثانية: تشرين الثاني/نوفمبر 2017 م - 1439 هـ

ردمك 978-614-01-2377-9

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (961-1+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (961-1+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
البريد الإلكتروني: edition.difa@gmail.com

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية للفنانة: **مشاعل الفيصل**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (961-1+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (961-1+)

العَهْدُ القَديم

صباحات عِرزال بِن أزرق

كَلِمَة

.. تعدَّى الخمسين مِن عُمرِه، عاشَ منها عشرين عامًا

خاليةً من أيِّ أحداث، حتى فاجأته ذاتَ يومٍ حمامة!

باتريك زوسكيند

قبلَ ساعةِ تأمُّل

«إلى هُنا يكفي هذا الهُراء!»

يكفـي هـذا العبـث والإصـرار على كتابة ما لن يُكتب. لا شـيء يُجبرني على مواصلةِ الكتابة. لا شيء. على الكاتب أن يتواضع أمام عجزه أحيانًا، وأن يكفَّ عن المحاولة.

أنا في غرفة المكتب مُنذ الصَّباح، أشـكو لزوجتي التي أشـتاق ضيقَ صدري وحيرتي في أمري. أُسنِدُ جبيني إلى كفِّي اليُسرى والوخزُ فـي كفِّـي اليُمنـى لا يزال. عيناي على أوراقٍ بين مِرفقَي، فوق سـطح مكتبـي، تحمِـلُ مخطـوطَ نصٍّ احترتُ في أمرِه. تمسـحُ زوجتي على كتفـي. تهبِـطُ كفُّهـا، مـرورًا بذراعي، وصولًا إلى كفِّي اليُمنى تمسـحُ على الضمَّادة الطبية برفق.

«ما زلتَ تشعرُ بآلامِ الحرق؟».

أُطلِقُ زفرةً حرَّى والحرق في قلبي. أُلصِق رأسَ سـبَّابتي برأسِ إبهامي بحذر. أُقرِّبُهما إلى وجهي أنظرُ فيهِما. أُجيبُها مُهوِّنًا:

«ما دمتُ قادِرًا على الإمساكِ بفرشاةٍ أو قلم..».

أهزُّ رأسي مُردِفًا:

«..أنا بخير».

تُلوِّحُ لي بعلبةِ مرهم الحروق. أنفضُ رأسي:

«لا حاجة لي بِه منيرة!».

تبتسم. تتركُ العُلبةَ على طرفِ المكتبِ. تُسنِدُ كفَّها على صلعتي. تمســحُ برفـق. تذكِّرُنـي بثلاثِ عشـرة رواية، وأكثر مـن ثمانين قِصَّة، وأربع مسـرحياتٍ وفيلمين سـينمائيين وعشرات اللوحات التشكيلية، أعمـال أصابـت مـن النجاحِ قدرًا وافِرًا طيلة مشـواري الأدبي والفني الذي جاوزَ الثَّلاثين عامًا. عيناي على النَّص لا تزالان. تهبِطُ زوجتي بكفَّيها إلى كتِفَي تعصُرُهما في حين تضغطُ بإبهامَيها عضلات رقبتي:

«يبدو أنكَ نسيتَ شيئًا ما!».

أدرتُ رأسـي جانبًا أنظرُ إليها مُستفهِمًا. ابتسـمتْ. انحنتْ تلثِمُ وجنتي. نفحَ طِيبُها الذي أُحِب وأفتقد:

«إنه يومٌ استثنائي.. حضِّر نفسك لنحتفل هذا المساء».

أطلقتُ تنهيدةً ولم أُحِر جوابًا. قرصَت موضِعَ قُبلتها في وجنتي قبل أن تنصرف:

«حبيبـي! هـي ليسـت المـرَّة الأولـى! دُرجـك السُّـفليُّ يغُـصُّ بمخطوطاتٍ مؤجلة وفي المرسم عشرات اللوحات قيد الإنجاز!».

هـي لا تفهـم. هـذا النَّصُ شـأنٌ آخر. ليس لما تركتُه فيه، بل لما تركهُ فيَّ. أردتُ أن أشرحَ لها، لكنني مثلُها لا أفهم. انصرفتُ عن كُلِّ شيءٍ مساءَ أمس، وفي الفجر وضعتُ ورقةً بيضاء صقيلةً كغِلافٍ فوق الصفحةِ الأولى من المخطوط النَّاقص، ورقة من أوراقٍ فاخرةٍ مطبوعٌ في زاويتِها السُّـفلى يسـارًا كلمة «مشـروع رواية»، دَئِبتُ اسـتخدامها كتعويـذةٍ وفـألٍ حَسَـنٍ مـع بدايةِ كلِّ عملٍ أشـرعُ في كتابتِه. أمسـكتُ بالقلمِ أخطُّ عنوانًا مؤقتًا في الأسفل: نَصٌّ لقيط!

لا أدري مـا الـذي صرفنـي عن كُلِّ مشـاريعي الكتابية المؤجَّلة.

وجدتُني مُنصرِفًا إلى شخصيةٍ جاءت من لا أدري، أجبرتني على كتابةِ شيءٍ منها على سبيلِ العودةِ إليها لاحقًا. شخصيةٌ لا أفهمها أخذتني صَوبها وأبعدتني عن كُلِّ شيء. فتحتُ ورقة بيضاء جديدة لأُدوِّن أفكاري حول هذا الذي تسلَّل إلى رأسي فجأة. وجدتُني ألهثُ في الكتابة؛ شخصٌ مضطربٌ اسمه عِرزال بن أزرق! حتى الاسم غير مألوفٍ لا أدري من أين جاء. أنا لا أملك تصورًا حول ما كتبت. لا الزمن معروفٌ بالنسبة لي ولا المكان ولا الشُّخوص التي تُحيط بالبطل. بطل؟! الكلمةُ ذاتها تمنحُ صاحِبَها قيمةً أشكُّ في وجودِها! ألفيتُني أكتب وحسب. أكتبُ عمَّا لا أعرف. أكتب بكفٍّ مُلتهبة. أنا لا أزعمُ ما يزعُمه بعضُ الكُتَّاب حول ما يشبه الماورائيات التي يتحدثون عنها، كأن يردُّون أصلَ كتاباتهم إلى وَحيٍ أو إلهام، متوسلين مزاعِمَهُم أن تمنح نصوصهم الفارغة هالةً زائفة تُبهِرُ قارئًا مُحتَمَلًا، لكنني كنتُ أكتبُ وحسب. أكتبُ وِفقًا لدافِعٍ أجهله. أكتبُ لأُدرِكَ مشهد انتحار تلك الشخصية، وحينما اقتربتُ منه لم أقوَ على قتلها!

شرعتُ في الكتابة قبل غروب يومَ أمس. خرجتُ بنصٍّ غير مكتملٍ كُتِبَ دفقةً واحدة. نسيتُ تمامًا التهابَ كفِّي. لم أكن لأنتبِه إلى غيابٍ انتابني أثناء الكتابةِ لولا ارتفاع الأذان من المسجدِ القريبِ من بيتي. التفتُّ إلى النافذةِ وإذ بالظلام يلوِّنُ ما وراءها. كم لبِثتُ أكتب؟! ختم المؤذِنُ نِداءَهُ فيما يُشبه ردًا على سؤالي. الصلاةُ خيرٌ من النَّوم. تنبَّهتُ. صلاة الفجر! نظرتُ إلى ساعةِ الحائط غير مُصدِّق.

كنتُ غائبًا تمام الغيابِ لاثنتي عشرة ساعة! رحتُ أتلفَّت في غرفةِ المكتب كأني لم أكُن فيها طيلة ساعاتِ الكتابة. أسمعُ وجيبَ قلبي في أُذُنيَّ. من أين جاء شَرَه السَّردِ هذا؟ أنا أُضيع وقتًا من المفترض

أن أُخصِّصه لمشاريعي الأخرى. رحتُ أذرعُ غرفةَ مكتبي جيئة وذهابًا أفكِّرُ فيما أصابني. أنا لستُ على ما يُرام. مشاريعي المؤجَّلة فيها من الشُّخوصِ ما لا تُسعِفُني ذاكرتي لحصرِه، ليس عِرزال بن أزرق واحدًا منها، ولا حتى باسمٍ آخر! غسلتُ وجهي. أعددتُ كوبَ قهوة. عدتُ إلى النَّص اللقيطِ الذي وُلِدَ من دون فكرةٍ أقرؤه. أحاولُ أن أُعيد عبثَ النصِّ إلى جذرٍ متوارٍ في ذاكرتي، موقفٍ سابقٍ، أو فكرةٍ قديمةٍ غير مكتملةٍ كنت قد ادَّخرتُها وحان أوان نضوجِها. عجزت. لا أصْلَ لهذا النَّص! ما الذي أردتُ قولَهُ؟ ومن يكون عِرزال بِن أزرق هذا الذي لا يُغري بكتابته أبدًا؟! ما كدتُ أُنهي تساؤلاتي حتى جاءت منيرة زوجتي تحمِلُ مرهمَ الحروقِ.

أنا أعرِفُ القليلَ عن شخوصِ رواياتي قبل الشروعِ في كتابتها، ومن ثمَّ أتعرَّفُها أكثر أثناء الكتابة، تُسلِّمني نفسها طَوعًا. تتكشَّف أمامي صفحةً تلو صفحة، أما بطلي المزعوم فلم أعرف عنه قليلًا قبل الكتابة، ولم يتكشَّف لي كثيرٌ منه أثناءها. حاولتُ أن أُكمِل ما كتبتُ لعلِّي أصِلُ إلى شيء.. أيّ شيءٍ يُفسِّرُ لي غيابي مع شخصيةٍ أجهلُها تمام الجهل. فصولٌ خمسة يُمثِّل كُلُّ فصلٍ منها صباحًا انتقَيته مِن صباحات شخصيةِ كهلٍ مُضطربٍ مُريبٍ مملٍّ منصرفٍ عن كلِّ شيءٍ إلا بِضعة اهتماماتٍ تافِهةٍ تلُفُّها الغرابة؛ قراءة مُذكِّراتٍ غامضة، وتطفُّل على حمامةٍ تمكثُ في دكَّةَ نافِذتِه، يُزاحِمها مساحتها الصَّغيرة، يرى حُلمًا يوميًّا لا أرى منه إلا أجزاءً مبتورة لا تُسعِفُني مُخَيِّلَتي على إتمامِها. شخصيةٌ ينبغي لها أن تُلقي بنفسِها من النافِذة انتحارًا ولكنها، لسببٍ أجهله، لا تفعل.

عادتي إذا ما تعثرتُ بنصٍّ، يمسِكُ عن المضيِّ بي إلى صفحةٍ

جديدة، أن أُفرِغَ نفسي لساعةِ تأمُّلٍ، أمضيها مُتربِّعًا على مقعدي وراء المكتب، صامِتًا مُغمَض العينين أتفكَّرُ بتفاصيل النَّص غير المكتوبة، حتى إنني أوغِلُ في تأمُّلي سفرًا إلى موطِنٍ كتبتُه، أو استحضارًا للشخوصِ في مكتبي. أطلبُ منها الجلوسَ على المقاعِدِ أمامي، أو نتحلَّق جميعُنا في جلسةٍ أرضية. أتفحَّصُ ملامِحِها مُتوتِرةً في حضرتي. أمنحُها سِماتٍ وملامحَ لم تكن موجودةً في مُخيِّلتي قبلًا، أُزيلُ شامةً من وجنةِ عجوزٍ متصابية، أرسُمُها أسفل شفةِ فتاةٍ مغناج تُثيرني كِتابتُها، أمنحُ غلظةً لصوتِ شَيخٍ تهبهُ توازُنًا يُشبِه شخصيته، أُثقِلُ لِسانَ ثرثارةٍ أبتَليها بتأتأةٍ تحدُّ مِن ثرثرتِها، وأُخصي مفتولَ عضلاتٍ أكسرُ عُتُوَّهُ وغُرورَهُ بجسدِهِ! أفرُغ من تشكيل الشَّخصيات فيما هي تمثلُ أمامي مُذعنة. أُحادثُها. أستميلُها للحديثِ عن نفسها. أستجوبها في أيِّ شيءٍ داخل النصِّ أو حتى خارجه. أتعرَّفُها أكثر. أدفعُها لفتحِ حواراتٍ فيما بينها. أستنطِقُ إحداها بما يُزعج الأخرى، لعلِّي بالاستفزاز أنال بُغيَتي، وأكون في موضعِ المتفرِّج، عسى أن تُنبِّهني انفعالاتها وحواراتها إلى مساحةٍ أغفلتُها أثناء الكتابةِ المتعثرة، أبني فيها جِسرًا أمدُّهُ إلى صفحةٍ جديدة.

هذا ما أعتزمه مع تلك الشخصية الوليدةِ توًّا. أعني قبل اثنتي عشرة ساعة. لعلِّي أعودُ إلى المخطوطِ المتعثِّر بعد ساعةٍ وأنا أعرفُ شيئًا عن عِرزال بِن أزرق.. أي شيءٍ يُعينني على إنهاءِ قصَّتِه بقتلِه انتحارًا من نافِذة غرفتِه الباردة، لينتهي النَّص الذي كُتِبَ بكفٍّ محروقة، أو لتُكمِل بقية الشَّخصيات النَّصَّ من دونه.

مشروع رواية

«نصٌّ لقيط»



صباحٌ أوَّل

«.. ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

انتفضَ عِرزال في سريره كأنما مسَّهُ برق. أبقى جفنيه مُطبقَين. يستعطِفُ كابوسَهُ الأزرق الدَّائِم، يستمهله قبل أن ينتهي بهِ راكِضًا مثل مجنون، يحاولُ إبقاءهُ لعلَّه يمنحهُ رؤية مَن يُحِب. يستشعر نبضَ قلبِه في صدغَيه. يهدأ. يتلاشى طعمُ الملح في فمِه. يُمعِنُ التفكير. يبتلع ريقه بصعوبةٍ وهو يمسحُ قطرات عرقٍ نضحتها صلعتُهُ. على هذا النحو يستفيقُ عِرزال بن أزرق كلَّ يومٍ منذُ أمس.

يفتحُ عينيه يتحاشى النظرَ إلى السَّقف. يلتفتُ صوبَ النافِذة. الحمامةُ قريبة من هُنا، أو أنها سوف تكون، بعد غيابٍ صباحيٍّ لا يطول. تعودُ حتمًا إلى الدكَّةِ البارزةِ أسفلَ نافذةِ غرفتِه، في شُقَّتِه الخرساء المطلةِ على البحر، والتي يسكُنُها منذُ حوالي ثلاثين سنة وقتَ زواجِه وفقًا لمذكِّراتِه. دكَّةُ النافِذةِ تُشبه شرفةً صغيرةً مفتوحةً على العالمِ. الحمامةُ دائمًا في الجوار فيما يُشبِه وجودًا أزليًّا، منذ يومٍ لم يعُد يتذكَّرُه. لعلَّه يتذكَّر وقتًا ألِفَ فيه وجودَها، في البدايات، حينما كانت تحطُّ على الدكَّةِ، ضخمةً بلهاء. تهبِطُ في ثِقَلٍ بين زرازير تتحرَّكُ في خِفَّةٍ وفواخِت رشيقة لا تنفكُّ تديرُ رؤوسها إزاء أي نأمةٍ تصدرُ عن الشَّارع. وحدها تبدو في عالمٍ آخر. عَيناها الدائريتان الحمراوان بلونِ الياقوت، والنقطتان السَّوداوان في مُنتصفِهِما لا تُفصِحان إلامَ

تنظُـر. هـو يحـبُّ النظـرَ إليها. مختلفة لا تُشـبِه غَيرهـا. رماديَّةٌ داكنة، تجلِبُ الغمَّ لولا لطخة فيروزية تطوِّقُ عُنقَها. تبدو غير مكترثةٍ لشيءٍ، تُمارِس وجودها من دون فهمٍ، مثله.

توقِظُه الشَّمسُ كلَّ صباح. نافذته بلا ستارةٍ منذُ أسقطها التوأمان الصَّغيران في صبيحةٍ يحسبُها كلَّ يومٍ صبيحة أمس. يتذكَّر؛ سـحبَ أحـدُ الصَّغيريـنِ خيطهـا بقوَّةٍ على ما يبـدو. انزعج في ذلك الصباح. صـاحَ بهمـا. انتفضـا. كانـا يقِفـان والسِّـتارةُ مُلقـاة علـى الأرضِ بين أقدامِهِمـا. هـو يقول هـي. هي تقول هو. يتذكَّر الإصبعين الصَّغيرين، يشـيرُ كِلاهُمـا صـوبَ الآخـر يتَّهِمُـه. يوغِـلُ الرَّجلُ في صورةٍ تُشـبِهِ الذِّكرى. يجلسُ أمام قماشِ الرَّسم يضربُ بريشتِهِ يرسمُ رتوشًا نهائية. يتدافعُ إليه الصَّغيران. الله! حُلوة يبُه! تختفي الصورةُ في رأسِـه وقتَ يهـمُّ الصَّغيـران بتقبيلِـه. يحكُّ صلعتهُ. متى كان ذلك؟ أمس. لا يهُم. المهـم أن تبقـى هـذه النافـذة بلا سـتارةٍ وفاءً للصَّغيريـن اللذَين مهَّدا للشَّمسِ طريقًا إلى غرفته الباردة. هل كانت الحمامة هُنا يوم سقطت الستارة؟ ربما، ولكن متى؟

يدعكُ عينيه بظاهِرِ كفَّيه. يتجاهل أسئلةً يرميها النَّومُ على تخوم اليقظة. متى متى متى؟ يُزعِجه كلُّ ما يُحيله إلى الزَّمن. هو لا يعرفُ مـن الزَّمـنِ إلا الماضـي، والماضـي كلُّه أمس. وهو لا يذكرُ من أمس إلا القليل؛ وُلدتُ أمس. حطَّت الحمامةُ أمس. سقطت الستارةُ أمس. وفي اليوم ذاته، أمس، هاتَفَ طليقته فورَ استيقاظِه: أشتاقُ للصَّغيرَين! تَقطع المكالمةَ فور تعَرُّفِها صوتِه: اركُض يا جبان!

يتثاءب. ينهضُ جالِسًا على سريره. يتناول هاتِفهُ يُجري اتصالًا.

لا أحد يُجيب. يضيقُ صدرهُ. ينظرُ إلى النافذةِ بعينين نصف مُغمضتين نحو موضعِ الحمامة. فرصةٌ ألا تكون هنا! يُزيح اللحافَ عن جسدِهِ النحيل. يمضي مُسرِعًا بمنامَتِهِ الرَّمادية الدَّاكِنة إلى مطبخِه الصَّغير يجهِّز قهوته. ترك الماء على النار. هرعَ مُسرعًا إلى خزانةٍ في الممر يفتحُها. تسقطُ بين قدمَيه جريدةٌ قديمةٌ مُصفرَّة الأوراق. يُقرِّبُها إلى صدرِه مُغمَض العَينين كأنما يُعانِقُها قبل أن يدُسُّها بين أشيائِه في الخِزانة. يُدخِل كفَّه في كيسٍ بلاستيكي. يُقرِّبُ كفَّه إلى أنفِه مبسوطةً وعليها حبَّاتِ شعير. يُفلِتُ عطسة. يبتسِم. رائحةُ والدي! هو يضطربُ إذا ما فكَّر في والِدِه. يفتقِدُه ولا يريدُ أن يلتقيه. هو يشتاقُ إلى أشياءٍ كثيرةٍ لا يُدرِكُها إلا بحضور ما لا يُحِب، مثل الحُمَّى، تجلِبُ كفًّا حانيةً تلمسُ جبينه، تُدَثِّره بلِحافٍ دافئ، وتحضِّر له حساءً ساخِنًا يُحِبُّه. يتنبَّه إلى حركةٍ في نافذته تقطع خيالاته. سعفة النخلةِ تستأنف رقصاتها كلما هبَّت ريح. يحثُّ خُطاه مُسرِعًا بكفٍّ مُطبَقةٍ على شعيرٍ نحو النافذة. يتحقَّق من غياب الحمامةِ مخافة أن يُفزعها. نفحت وجهه ريحٌ باردةٌ فورَ ما فتح نافذته العارية. تبدو النخلة أمامَ النافذةِ نظيفةً لامعةً رطبة السَّعف. أتراها أمطرت أثناء نومي؟ التفتَ إلى البحرِ الممتدِّ بزُرقَتِه إلى السماءِ أمامه. مياهُ المدِّ عالية. أغمضَ عينيه عن زُرقةٍ تُخيفه. استلَّ نَفَسًا طويلًا يعبئُ داخِلَهُ رائحةً يُحِبها، رائحة الذَّرق اليابِس، رائحة أمس. طأطأ، فتحَ عينيه ينظرُ إلى الدكَّة الصَّغيرة المـُغبرَّة. نثرَ ما في قبضتِه من حبوبٍ قُربَ الذَّرقِ المتكدِّس وكومةِ أعوادٍ يابسةٍ وريشٍ وخيوطٍ وأسلاكٍ رفيعة. هذه الحمامةُ توشكُ أن تبيض! تهلَّلَ وجهه ثُمَّ عَبَس حينما رفع رأسه إلى البحرِ ثانية. رفع رأسه أكثر. سماؤه صَحْو.

هو يمقتُ الأزرق. يمقتهُ بحرًا، يمقتُه سماءً، ويمقتُه أبًا. تُربِكهُ الألوان في ذاكرته منذُ أصبحَ لكلّ لونٍ حدثٌ يُلازمُه. وحدهُ الرَّماديُّ يُشبِهه، لـونٌ لا لـون له ولا ذاكرة. يُشـبه تمثالًا صـارَهُ بإرادتِه، لونُ النهايات، لون الدُخانِ والرَّماد وحُطام البيوتِ والرُفاة، لون العدم. يتذكَّر عِرزال الكهلُ نفسَـهُ صغيرًا. في الرابِعة أو الخامِسـة. يُداعِبهُ أبوه يُلقيه عاليًا. تصيـحُ أُمُّـه خشـيةَ أن يقـع. انتبه يا أزرق.. سـوفَ يقع الصَّغير! يبكي الطفلُ فزِعًا. يصرُخ أزرق غاضِبًا. يصيحُ بزوجتِه؛ ولدك جبان! يُمسِكُ بِـــ عِـرزال الصَّغيـر ثانيـةً. يُلقيه فـي الهواءِ عاليًا غير مبـالٍ بهَلَعِهِ. إذا بكيتَ سوف أُلقي بِكَ بعيدًا إلى السَّماء. زمَّ الصَّغيرُ شفتَيه. لم يبكِ، لكنه كرِهَ السَّماء.

أشاحَ ببصرِه عن صَحوِ سمائِه. أطبقَ النافذة واستدار يمشي على مهـلٍ نحـو مقعدِه الخشـبي، يواجـه النافِذة على مبعدةِ بضعة أمتار. لا تزال رائحة ذَرْقِ الطيور التي خالطت غُبارَ الدكَّةِ في أنفه. أخذته بعيدًا، بعيدًا جدًّا إلى أمس. يصيرُ للرائحةِ الكريهةِ شـأنٌ آخر إذا ما أخذتكَ إلى زمنٍ تُحب. هزَّ رأسـه. ليسَ شـرطًا أن يكون جميلًا زمنك ذاك، يكفيكَ أنك كُنت.

«انتظارُ ما يعود وما لا يعود»

كنــتُ فـي الثامِنـةِ، أطـوي طـرَفَ ثوبِي حول خاصرتـي، أجلسُ على سـحَّارةٍ خشـبية في سـطحِ البيتِ العربي القديم، سطحُنا الواسع الرَحِب. أتلفَّتُ بين أقفاصٍ كبيرةٍ كثيرة. رائحةُ الأرضِ رائحتُنا؛ غبارٌ وذَرْقُ طيورٍ وشـعير. أتابعُ لهفة والدِي واضطرابه قبل الغروب. يمَّمَ

وجهَـهُ صوبَ الجنوبِ سـاهِمًا، يحسـبُ الوقـتَ يتناهبُه قَلَق. يتحرَّى عودة حماماتِه السِّـت التي أطلقها عند الحدودِ الجنوبية فجرًا. كانت الرِّيحُ شـديدة في الصَّحراء صباح يومنا ذاك. وأنا، صغيرًا، أثقُ بعودةِ زواجِل والدي. لا تعني لي الرِّيحُ والمسافات شيئًا، ولا أحسبُ وقتًا لعودتهـا، لأنهـا حتمًـا وإن تأخرت تعود. كلُّ من عاشَ في الدَّار يصيرُ مـن أهلهـا؛ حمـامُ الـدَّار لا يغيب وأفعى الدَّار لا تخـون، هذا ما قالتهُ لي بصيرة قبلَ سنتين من يومِنا ذاك، جدَّةُ والدي، أو رُبَّما جدَّةُ جدَّتِه، لا أدري فهـي قديمـةٌ جـدًا، أزليَّة، سـاكنةٌ في زاويـةِ بهو البيت العربي القديم. ملتحِفةً سـوادَها، أسـفلَ السُّـلَّم. لماذا أسفلَ السُّلَّم؟ لم أسأل نفسي يومًا عن مواضع أشياءٍ اعتدتُها مُنذ مولدي، في بيتٍ عربيٍّ تطلُّ حُجُراته الضيِّقة على بهوٍ داخلي غير مسقوف، بهو بصيرة التي لم أرَها تفتحُ عينيها يومًا، كأنما خِيطَ جفناها برموشها منذ الأزل. كانت هناك أبـدًا، مثـل حمامـةِ الدَّكَّـة. بصيرة لا تترك مرتبتها الإسـفنجية حتى لو اضطرَّت لقضاء حاجتها، تقضيها حيث تجلس من دون اكتراثٍ كأنها تعطسُ، تتثاءب أو تبصق. شـأنُها شـأن أثاث البيت وأدواتِه، لم يتغير مكانها قط؛ الفراش في غرفة النوم، الموقد في المطبخ، أخياش الرُّز والعدس والسُّـكَّر في غرفةِ الكَيل، وسـائِد الجلوس الأرضية العريضة في البهو، وبصيرة، بثيابها السَّـوداء، تلتصِقُ بفراشـها الأرضي أسـفلَ السُّلَّم كما لو أن ظهرها مدهونٌ بالغِراء. لا أتذكَّرُها في غير موضِعها الأثير، تُغطِّي نصفَ جسدِها السُّفلي بلحافٍ صوفيٍّ بُنيٍّ خشنٍ صَيف شـتاء. تُسـنِدُ ظهرها إلى وسـادةٍ سـماوية الزُّرقةِ مهترئةً تتوسطها بقعةٌ صفراء. كنتُ صغيرًا جدًّا لم أُفكِّر من تكون، لكن بعدما طرد والدي

كُلَّ العبيد الذين كان يشتريهم من البيت، ويقيت هي، فهمتُ أن بصيرة من أهل الدَّار.

بصيرة جامدةٌ على الدوام، ننسى وجودها أحيانًا، يحسبُها الرائي ميتةً لـولا صـوتٌ تُصدِرُه بين دقيقـة وأخرى، كأنَّما تُنَبِّه إلى وجودِها، حينما تجمعُ مخاطَ صدرها في حنجرتها تحضيرًا لبصقةٍ تصوِّبُها في قصعـةٍ خزَفيَّـةٍ تربضُ على بسـاطِ حصيرٍ إلـى جوارها أبدًا. لم تُخطئ هدفهـا قـط. ألتفـتُ إليهـا متحفِّـزًا فـي كلِّ مـرَّةٍ تُصدِرُ فيها حشـرجةَ حُنجرتهـا قبلمـا تَنخُـمُ بلغمَ صدرِها. أرفـعُ غُرَّتـي الطويلة عن عينيَّ. أُنقِّـلُ بصـري مُبحلِقًـا بيـن شـفتَيها والقصعة. خخخـــــ. أضيِّقُ عينيَّ أُمعِنُ النظر. تُحرِّكُ فكَّيها مُبَرطِمةً مثل نعجةٍ تلوكُ برسيمًا. ِتف! تُلصِقُ بصقتهـا فـي منتصـفِ القصعة. أُلوِّحُ بقبضتي كأنما أحرزتُ فوزًا على صحبي بلعبةِ الكريات الزجاجية في سكَّتِنا التُّرابية القديمة. أبتسمُ غائبًا في ملامِح العجوز: ماذا لو كُنتِ مبُصِرة؟!

يطوِّقُني شكِّي كونها كفيفة. أجمعُ أقلام التلوين الخشبية أرسمُ وجوهًـا ضاحِكـةً، أُقـرِّبُ الورقةَ أمام وجهِها، تبتسـم رغم إغماضِها. أُقرِّبُ ورقةً جديدةً تحملُ وجوهًا مُكفهرَّةً، تعبسُ بوَجهِها. أُخبر والدي برد فِعل العجوز. يُفلِت ضحكةً مِن أنفِه. سوف تقتلكَ أوهامك يومًا!

عِرزال

تململَ عِرزال الكهلُ في جلسـتِه يتحرَّى أوبةَ تلك التي شـغلتهُ بحضورهـا وغيابِهـا. يتأفَّـفُ يمرِّرُ عينَيه يُمشِّـطُ تفاصيل غرفتِه، كأنما يراهـا مـرَّةً أولـى. يطأطـئُ ينظـرُ إلى خشـبِ الأرضيـةِ الدَّاكِن وقطعةِ

السـجَّادِ الحمـراء المهترئـةِ الوحيـدة. يديرُ رأسـه يسـارًا نحو سـريرِه النحاسـيِّ ولحافِـه الصوفـيِّ البُنِّي القديم. يُدير جِذعـه ينظرُ إلى وراءِ ظهـره، يـرى إفريـزًا خشـبيًّا في الجِدارِ، يحيطُ كـوَّةً كان لها بابٌ ذات يـوم. يتملَّـى فـي الجدارِ الأبيض المصفرِّ عـن يمينِه؛ صورتان لتوأمَيه توجعانـه. يُغمِـضُ عينيه على وجعِه، يفتحهُما حمراوان لامِعتان على شقوقِ السَّقف متنهِّدًا. لو أنك تنطق! يهزُّ رأسَه محدِّقًا في دفترِ مُذكِّراتِه على الطاولةِ الصَّغيرةِ قُربَ السَّرير.

«صوتُ ما ليسَ لهُ صوت»

كنتُ في السادِسَةِ يومَ لمحتُ أفعى صغيرةً، تُرابيَّة اللون مُرقَّطة، تطلُّ برأسِها من شِقِّ الجدار في حوشِ الغَنَم في بيتنا القديم، تُخرِجُ لي لِسانها المشطور كأنما تُزغرِد من دون صوت. أثرتُ ذُعرَ الدَّجاجاتِ بصُراخـي. ركضـتُ إلى بصيرة أنـدَسُّ تحتَ لحافها مُرتعِدًا. طمأنتني العجـوزُ بجُملـةٍ سـمعتُها للمـرةِ الأولى؛ حمامُ الـدَّار لا يغيب وأفعى الدَّار لا تخون. انتفضتُ فزِعًا يومَ سـمِعتُ الصَّوتَ مبحوحًا، كما لو أنه صدى لصوتٍ لم أسمعه. حَبَوتُ مُسرِعًا أبتعدُ عن فِراشِها وفَزَعي يجـاوزُ مـا داهمنـي أمـام أفعـى الجِدار. نظـرتُ إليها مـن وراءِ كتِفي مُبحلِقًـا. يُمَّـه بصيرة! أدارت وجهها صوبَ القصعةِ الخزفية. خخخـتـف! لـم يُصدِّقنـي والدي حينما أخبرته. يا ولـد! بصيرة عمياء صمّاء خرساء. أمسكتُ بِكُمِّ ثوبِه أتوسلُه أن ينتظر حتى يُنصِت إليها بنفسِه. رحتُ أرجوها. يُمَّه بصيرة يُمَّه بصيرة! لم تُمهِلني. صوَّبَتها في منتصف وجهي. خخخـتف! قهقه والدي. احذر غدر الأفاعي يا جبان! واصل

ضحِكَهُ يرتقي السُّلَّمَ إلى السَّطح يتحرَّى أوبة حماماتِه التي اعتاد أن يُطلِقها بعيدًا.

بقيَ هاجسي من ظهور الأفعى مرَّة أُخرى يُفزِعني، رغم إيمان العجائز ببركتِها، والتسليم بأن لِكُلِّ بيتٍ أفعاهُ الوفيَّة، ورغمَ حكاياتٍ سمِعتُها عن أفعى دارٍ هاجمَت لِصًّا تسلَّلَ إلى الدَّار خلسةً، وأخرى تهزُّ سريرَ رضيعٍ تُهدهِدُه أثناء نومِ أُمِّه.

أبي يُسمي هذه الأشياء خُرافات، أما أنا فأُصدِّقُها حينًا وأنكُرها أحيانًا.

عِرزال

ها هي فيروز وقد حطَّت على دكَّة نافذةِ غُرفة نومِ الكهل، تحملُ عودًا في منقارها. اللطخةُ الفيروزية في عُنقها تبدو أكثر توهجًا مع ارتفاع الشَّمس. هو يظنُّ أنه بسببِ لطختها تلك أسماها فيروز. بدا لهُ الأمر غبيًّا أن يُسمي كائنًا لا يستطيع الاقتراب منه أو مناداته. منحتهُ التسميةُ شعورًا بالأُلفةِ يفتقده منذُ أمس. ألقت فيروز عودَها على دكَّة النافِذة. أخذت تلتقط البذورَ قبل أن تدنو من عُشِّها غير مُكتَمِل البناء، حملت عودها الجديد تدسُّه بين الأعوادِ والأسلاكِ والرِّيش والخيوط. استشعر عِرزال بردًا ينسلُّ إلى عظامه. ترك مقعدَه. جرَّ خطواته ببطءٍ نحو المشجبِ في الزاوية. مدَّ يديه إلى شالٍ فيروزيٍّ وعيناه على الحمامةِ مخافة أن تطير. ألقى الشَّالَ فوقَ كتفَيه بحذر. ثبَّتَ دبُّوسًا في الشَّالِ أسفلَ عُنُقِه بعد أن لفَّه بإحكام. جلسَ على مقعدِه ثانية، يحاول ألا يُبعِدَ عينيه عن الحمامة. يُتابع مشيتها. حركة

عُنُقِها بين تطاولٍ وانكماش. زُرقة السَّماء تأخذُه بعيدًا عن فيروز إلى أمس. تبًّا لك يا أزرق ماذا تُريد! يعقِدُ حاجبيه مُعاوِدًا إمعان نظرِهِ في الطائر الرَّمادي.

«انتظارُ أوبةِ الثُّلث»

من سطحِ البيت، لمحَ والدي نقطةً سوداء في الأُفُق. خفَقَ قلبي إزاء تحفُّزِه، يقف على أطراف أصابعه مشرئبّ العُنُق. تركتُ السحَّارة الخشبية التي أجلسُ عليها. أسدَلتُ الثَّوبَ على ساقيَّ بعدما فككتُ رِباط طرفِه عن خاصرتي. سرتُ على مهلٍ حافيًا أترُك آثار خَطوِي على أرضِ السَّطحِ المغبرة. يمنحُني تهشُّم الذُّرْقِ الجافِّ تحتَ قدميَّ شعورًا أحبُّه. اقتربتُ من والدي أُمسِكُ جزءًا من ثوبِه بيد، وبيدي الأخرى أرفع عن عينيَّ غُرَّتي. نظرَ إليَّ باسِمًا، ثُمَّ عاودَ النظر إلى النُّقطةِ السَّوداء يهزُّ رأسه: غادي. لفظَ الاسمَ بصوتِه الغليظ. صوتُه جليٌّ دائمًا بعكس صوت بصيرة الهامِسِ المبحوح. أومأتُ برأسي أوافِقُ قوله. غادي؛ الأول والأسرع دائِمًا. رحتُ أُعَدِّدُ على أصابِعي الصَّغيرة. بقيَ سفَّار.. عوَّاد.. رابحة.. وزينة ورحَّال. حَطَّ غادي على سطحِ القفصِ الكبير يتفقَّد دارَهُ، قفص الحمامة الأُم. اقتربتُ منه بحبور، أُكوِّر شفتيَّ أُحاكي هديله. غروووغ غروووغ. أمسكَ والدي بوعاءِ الشَّعير يُمعِن نظرهُ جنوبًا. ظهرت بعيدًا ثلاثُ نقاطٍ سوداء. بدا والدي قَلِقًا وهو ينثرُ الشَّعيرَ لـ غادي في حين ينظرُ إلى الأُفُقِ وقتَ المغيب. تمتمَ وهو يقف على أطراف أصابِعِه مُشرئب العُنُق. سفَّار وعوَّاد ورابحة. أنا لا أعرف كيف لوالدي أن يتعرَّف

حماماتِه وهي كالشَّامات في كتِفِ السَّماء وقتَ الغروب. أنا أتعرَّفُها وقتَ تصيرُ قريبةً بسبب ألوان حُجُلِها التي تُطَوِّقُ قوائِمها. هزَّ رأسه بأسف. لن يعودا. كنتُ أعرفُ أنه يقصدُ زينة ورحَّال، الأخوان غير الشَّقيقين للحمامات العائدة. هي المرَّةُ الأولى التي يُفلِتهما فيها بعيدًا عند الحدود. صغيران، رُبما أنهكهُما التعبُ والعطشُ وجنون الرِّيح. نزلتُ إلى البهو. مررتُ ببصيرة في طريقِي إلى حوشِ الغَنَم. كرَّرتُ قولَ والدي. لن يعودا. هَمَسَتْ بصيرة. حمامُ الدَّار لا يغيب. فاتني أن أراها وقتَ نطقت. استدرتُ بسرعة أنظرُ إليها بتوق. ماذا قلتِ؟ أجابتني بصقةً في قصْعَتِها. تِف!

عِرزال

ترك عِرزال مقعده إلى المطبخ يتسلَّل مثل لِص. سكبَ الماء السَّاخن فوق مسحوق القهوة. أحاطَ الكوبَ بكفَّيه يستمدُّ دِفئًا. أقفلَ إلى مقعدِهِ في غرفة النَّوم. لم يجد الحمامة على الدَّكَّة. طارت لتجمعُ مزيدًا من العيدان قبل أويتها، حمامُ الدَّار لا يغيب. ارتشفَ قليلًا من قهوتِه قبل أن يضعَ كوبه على طاولةٍ صغيرةٍ إلى جواره. حدَّق في النافِذة وتلالِ الذَّرْقِ على دكَّتِها. كان يُزعِجه فزعُ الطيورِ في نافذتِه وهربها كلَّما انتبهت إلى دخولِه الغرفة. وكان يغضبُ كلَّما دفعها الخوفُ إلى الفرارِ بعيدًا. حتى بُطء حركتِه وحذره لم يجديا. صارَ يدخُل غرفة نومِه بظهره. جرَّبَ يوم أمس أن يلِجَ الغرفة مُتقهقِرًا، مُتظاهِرًا بعدم انتباهِه إلى طيورِ الدكَّةِ وراءه. ينظرُ إلى الزَّرازير والفواخِت والحمامةِ في المرآةِ أمامه. الغريب أنها لم تهرُب! تجفل

عند دخوله وحسب. تنكمش أعناقها. تترقَّب. توشكُ أن تطير لكنها لا تفعل. تكتفي بالنظرِ إلى ظهرِه متأهِبة. يجلسُ إلى مقعدِه مُقابِل المرآة، يُراقب حركة الطيور وراء ظهرِه. تنظرُ إليه بحذر قبل أن تطمئِنَّ إلى سهوِهِ عنها. يستديرُ برفق. تتطاير فزِعةً فور ما تقع عيناهُ عليها. يصرُخ. جبانة! وحدُها الحمامة الرَّمادية فيروز صارت أقلّ حذرًا إذا ما التزمَ مكانه، فيما يُشبِهُ اتفاقًا ضمنيًّا، وراء المساحةِ بين النافذةِ والمقعد الخشبي.

«مُناوَشَة شَكٍّ لِيَقين»

نهضتُ قُبيل الشُّروق. زعبتُ من ماء بئرنا المجنونةِ أتذوَّقُ قليله قبل الشُّرب. منحَت البئرُ ماءً مالِحًا في ذلك اليَوم، سوف يكون يومًا صعبًا، هكذا كنا نتلمَّسُ طالعَ أيامِنا نبوءةً، إن جاء ماءُ البئرِ عذبًا استبشرنا خيرًا، وإن جاء مالِحًا عشنا يومنا في خوف. ركضتُ إلى الأعلى لعلَّ زينة ورحَّال قد استدلَّا طريقًا إلى سطحِ الدَّار، دارهما. وجدتُ والدي وقد سبقني على غير دأبِه. يقفُ بجسدِه الطويل يواجه الجنوبَ ساهِمًا. لم ينتبِه لمجيئي. مرَّرتُ نظري أعلى الأقفاصِ المفتوحةِ وداخلِها. لا أثر. رفعتُ ثوبي أطوي طرفه أعقِدهُ حول خاصِرتي. جلستُ فوق سحَّارتي الخشبية وراء والدي أرنو صوبَ الجنوبِ مثلما يفعل. أتحرَّى نقطتين سوداوين في الأُفُق. لا حَمَام بين زرازير خاطِفةٍ ويمامٍ يمسحُ الأرضَ بنظرِه بحثًا عن فُتات. طالَ انتظارُنا ووالدي في وقفتِه ثابتٌ مثل نخلة، يُمشِّط السَّماءَ بنظرِه بين ظلمةٍ ونور. ألم تقُل إنهما لن يعودا؟!

انتفض حينما قطعتُ شروده بسؤالي. تنبَّه إليَّ أجلِسُ وراءه. استدار يلتفِتُ بوجهٍ لا يحمِلُ تعبيرًا. أشارَ بسبَّابتِه إلى رأسه. هذا يقول لن يعودا. هبطتْ سبَّابته إلى صدرِه. وهذا يقول رُبما. صمتَ والِدي قليلًا. تنهَّدَ قبل أن يُحدِّثَ نفسه. صغيران والمسافةُ طويلة والريح شديدة. رفعتُ ساقَيَّ أتربَّعُ فوق السَّحَّارةِ الخشبيةِ أُهيِّئ نفسي لجلسةٍ طويلة، أُفكِّر في كلام والدي. سارَ نحو السُّلَّم. صحتُ به. بصيرة تقول.. صاحَ يُقاطِعُني. بصيرة لا تقول! هبطَ السُّلَّمَ من دون أن يلتفت إليّ. اختفى في الأسفل. جاءَ صوتُه مُرتفِعا. لا تنتظر، وحدُه الزاجِلُ يعود، لم يكونا، لن يعودا!

عِرزال

تأخرت فيروز في رحلتها. مدَّ عِرزال عُنُقَه يمسحُ ببصرِه دكَّة النافِذة، تُراها اختفت في الزاويةِ موضِع ما سوف تُصَيِّرُه عُشًّا. لا شيء. انقبضَ صدرُه. أتُراها عثرت على مكانٍ آخر تضعُ فيه بيضَتيها؟ حطَّ بُلبُلٌ على سعفةِ النَّخلة. بدا مضطربًا كثير الالتفات. الطيورُ لا تُطيل البقاء على السَّعف المزدَحِم بالخُوص المطواع للرِّيح. الربيعُ على الأبواب، لو أنني أقتِلعها وأضعُ مكانها سِدرةً قوية الأغصان تُغري الطيورَ بالبقاء مُدَّة أطول؟ تنهَّد يهزُّ رأسه. ولكن النَّخلة من أهل الدَّار. لا يزال الطَيرُ يتلفَّتُ قلقًا فوق السَّعفةِ غير المتزنة، يفتحُ جِناحيه ويُطبِقهُما مُترَدِّدًا يوشِكُ أن يُحَلِّق. عينا عِرزال تخونانه تنظُران إلى السَّماء. تهبطان إلى البحر. يُمرِّرُ ظهرَ إبهامِه أسفلَ عينيه يمسحُ دمعًا. يسمعُ صوتَ البُلبُلِ هامِسًا. عِرزال! حَمَامُ الدَّار لا يغيب! يلتفتُ إلى

طيرِ السَّعفةِ بسرعة. لا يجِده في الجوار. يحكُّ صلعته مستغربًا. تذكَّر عِرزال فيروز التي طال غيابُها. أتُراها تاهت في السَّماء؟ هل ابتلعتها الزرُّقةُ هي الأخرى؟ ما كاد يُنهي تساؤله حتى ظهرت تحمِلُ ورقة شجرٍ يابسة، تصفِقُ جناحَيها هبوطًا إلى موضِعِها. دسَّت مِنقارها بين الأعوادِ تُسوِّي عُشَّها قبل أن تطيرَ ثانيةً.

«مِنحةُ العَقلِ ومِحنَتُهُ»

لم أفهم. لماذا أطلقَ والدي رحَّالَ وزينة جنوبًا عند الحدودِ وهُما ليسا مِثل البقية، لماذا انتظر عودتهما ما لم يكونا؟! بقيتُ مُتربِّعًا على سحَّارتي الخشبية أنتظر، حائرًا بين الاثنين؛ أؤمِنُ بما يقوله والدي وأرفضُه، أكفُرُ بما تقوله بصيرة وأرغبُه. هبطتُ السُّلَّمَ بعد ارتفاع الشَّمس. أفرغتُ قصْعةَ بصيرة من بُصاقِها. أعدتها نظيفةً إلى مكانها الدائم وأنا أنظرُ إلى العجوز. جلستُ على الأرضِ فوق بساط الحصير إلى جانبها. رحتُ أُسمِعُها وأنا أُحدِّثُ نفسي. أزرق يقول وحدهُ الزاجِلُ يعود، وأنا أقول كما قالت بصيرة حمام الدَّار لا يغيب. كنتُ أُبحلِقُ في ثغرِها لعلِّي أحظى برؤيةِ حركةِ شفتيها وهي تنطق. سعلت العجوز. تحشرجَ الصَّوتُ في حنجرتها. راحت تستجمِع بلغمَها، تُقَلِّبُه في فمِها. مددتُ ساقي. أزحتُ بِقَدَمي القصْعةَ الخزفية أُبعِدُها عن موضِعِها الدائم بِضعة أشبار. نقَّلتُ بصري بين شفتَي العجوز وقصْعَتها. خخخخ. تِف. لم أستغرب حينما استقرَّت بصقة بصيرة في قُعرِ القصْعة!

عِرزال

نهـضَ تـارِكًا مقعدَهُ، يجرُّ خُطـاه إلى حمَّامِه المؤجل بعد مُراقبةِ فيروز وشُـربِ قهوته الصَّباحية. حمَّامُه لا باب له. هو يكرهُ الأبواب الموصـدة. يخـافُ مـا تُصوِّرُه مُخيِّلتُه وراءها. أفكُّهـا، أُزيلُها يزول ما وراءهـا! هـذا مـا قـرَّره أمـس. لا باب في مسـكنِه سـوى باب الشُّـقَّة الرَّئيـس. تجـاوَزَ عتبـة الحمَّـام دخـولًا. وقف أمام المـرآةِ يُحدِّقُ في وجهِه. كان رماديًّا مِثل منامتِه. جفناه مرتخيان على عينيه الشَّهلاوين. انتزَعَ دبُّوسَ شالِهِ الفيروزي. أرخى الشَّال. مرَّرَ ظاهِرَ كفِّه على ذقنِهِ. تحسَّـسَ شـعرَهُ الأشـيَب النابت. غريب! كنتُ صغيرًا يومَ أمس! غارَ رأسُه بين كتفَيه. قطَّبَ حاجِبَيه. ألصقَ فكَّه السُفلي برقبتِه ونفخَ صدرَهُ: غرووووغ غرووووغ.

* * *



صباحٌ ثانٍ

«.. أخذَ يُلوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رحَّال.. زينة! ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

كوَّرَ جسدَهُ تحتَ لِحافِه. منامتُه الرَّمادية تلتصقُ بجسدِه المتعرِّق. أغمضَ عينيه بشِدَّةٍ يتظاهرُ بالنَّوم. هو لا يريدُ لهذا الكابوس أن ينتهي. هذا شيء يُشْبِه الابتزاز! أن يصيرَ لِقاؤكَ بمن تُحب في إطارِ كابوس؛ يعني أن تعقِدَ صداقةً مع كوابيسِك بصِفتِها أحلامًا. نظرَ إلى النافِذة. فيروز رابضة في زاوية الدكَّة. مدَّ يدَهُ إلى الطاولةِ الصَّغيرةِ قُربَ سريرِه. تناول هاتفه فيما يُشْبِه فرضًا صباحيًّا منذُ.. منذُ أمس. ألصقَ السمَّاعةَ بأُذُنِه. أشتاقُ للصغيرَين. طليقتُه لا تريد أن تنسى. اركُض يا جبان! ثُم أقفلَت الخط. ركضَ عِرزال إلى المطبخ يغلي الماء.

«فاقِدُ الشَّيءِ، قد يُعطيه»

أوشكت الشَّمسُ على المغيب. السَّماءُ تشوبُها حُمرةٌ كئيبة، وأنا لا أزال أنتظر فوق سحَّارتي الخشبية. تململتُ في جلستي والسَّماء خالية إلا من نتف غيوم. نهضتُ أنفضُ الغُبار عن ثوبي. مشيتُ نحو قفصِ الغائبَين أدسُّ كفَّيَّ في جيبيّ الثَّوب. الحمامةُ الأُم، داخِل سحَّارةٍ خشبية غطاها الذَّرْقُ، ترقدُ على فرخَين جديدَين تنظرُ إليَّ باحتراسٍ وغضبٍ لأني تخلَّيتُ عن صَغيرَيها في تيهِ الصَّحراء. مسكينةٌ الحمامةُ

الأُم، كأنما خُلِقَت من أجلِ أن تفرخَ طيورًا تغيب، وتعودُ بشرطِ غياب. مـدَدْتُ ذراعـي أنوي أن أمسـحَ بكفِّـي الصَّغيرةِ على ظهرِهـا أُعزِّيها. غاصـت رقبتُهـا فـي صدرِهـا تهـدِلُ مُغتاظة. غروووغ. كـدتُ أُلامِسُ ظهرهـا لـولا أن عاجلتنـي تضربُ كفِّي بجِناحِها. كفِّي قريبةٌ ما زالت. أناوِرُهـا. زعلانـة؟ عاجلتنـي بضربةٍ أُخرى أشـد. سـحبتُ ذِراعي. لا بـأس. أُمّنا بصيـرة تقـول حمام الدَّار لا يغيب. ظلَّـت الحمامةُ تُراقِبُ كفِّي العائِدة إلى داخل جَيبي. ابتسمتُ لها وقد هدأ خوفُها. حتى أنتِ تُصدِّقين أُمَّنا بصيرة. غروووغ.

عِرزال

دخلَ غُرفتَه بظهرِه حذِرًا. اقتربَ من النافِذة متجاوزًا حدودَ اتفاقٍ ضِمنيٍّ مع فيروز. استدارَ ببطءٍ يواجه النافِذة. انتفضت الحمامة. مَشَتْ إلى حافَّة الدكَّةِ كاشِفةً عن بيضتين في وسط العُش. أطلقت جناحيها للرِّيـح. جحظـت عينـاه وهو يُحدِّقُ في العُشّ. أسـندَ كفَّيه إلى رأسِـه فاغِـرًا فمَـهُ علـى اتسـاعِه. طيري يا جبانة! عينـاه على العُشِّ ما زالت. كيف لها أن تترك بيضَتيها على هذا النحو؟ كزَّ على أسنانِه غيظًا. فتحَ النافِذةَ غير مصدِّق. نفحتهُ ريحٌ بارِدة. أجفل. سوف تتجمَّد البيضتان! قطـعَ الغرفـة جيئـةً وذهابًا يقضِمُ أظفاره. حمامةٌ غبية جبانة! ينظُر إلى النافِذة وهو يركُن في إحدى زوايا الغرفة. البيضتان في عُشِّهما من دون فيروز. ضربَ الأرض بقدميه مثلَ طِفلٍ حانقٍ يتمسَّكُ بشيءٍ يوشكُ أن يفقِدَه. فيروز غير جديرة بكُما! صرخَ. تعالي، تعالي أرجوكِ من أجل.. من أجل الـــ..! وقفَ على أطرافِ أصابعِه ينظرُ إلى البيضتين. على

وجهِه شبحُ ابتسامةٍ كأنه توصَّل إلى شيءٍ ما داخلَ رأسِه. حثَّ خَطوَهُ إلى دكَّة النافِذة. حملَ البيضتين في كفِّه المرتعشة. دِفءُ فيروز على قِشرتِهما لا يزال. حدَّقَ فيهما كأن بياض القِشرة يشفُّ عمَّا بداخِلِهما. كائِنان في وضعٍ جنينيٍّ وديعانِ مُطمئِنان. عِرزال على وشك البكاء؛ لمعان عينَيه، رعشةُ شفته السُفلى واختلاج منخرَيه. راحَ يجوبُ غرفته يُحدِّثُ نفسه. كفُّه مبسوطةً تحت البيضَتين. زينة ورحَّال! نعم، أنتُما زينة ورحَّال! كان يحلُم بمثلِ هذه اللحظة مُنذ أمسٍ طويل. هزَّ رأسه يضحك. حمامُ الدَّار لا يغيب.

«زُرقةٌ تفتحُ أبوابَها على موعِدٍ مستحيل»

أتذكَّرُ والِدي مُنحنيًا على قفصِ حماماتِه السِّت في الصَّحراء العارية قُربَ الحدود، قفصٌ نصف كُرويّ دقيق الأسلاكِ. كانت الريحُ شديدة تصفعُ أُذُنيّ وتُبعِدُ غُرَّتي عن جبيني. يفتحُ والدي باب القفصِ ويهشُّ على حماماتِه. تطيرُ الحمامات تِباعًا. أُنصِتُ إلى صفقِ أجنحَتِها مع هجيج الرِّيح. أنظرُ إليها واثقًا في عودتِها إلى سطحِ البيت، رغم الريح الهائجة. راحت الحمائم تحومُ في سمائِنا الزرقاء قبل أن تُحدِّدَ وجهتها شمالًا صوبَ المدينة. حلَّقَ غادي أولا، تبعَهُ أشقَّاؤه سفَّار ثم عوَّاد ورابحة بسرعةٍ، في حين حطَّ الفرخان غير الشَّقيقين رحَّال وزينة على الأرض، أعرِفهُما من صِغرِ حجمَيهِما ولونَي حِجلَيهما. لـ رحَّال حِجلٌ سماويُّ الزُّرقةِ ولـ زينة حِجلٌ وردي. ارتبكتُ لرؤيتِهِما على ذلك النحو، مُرتبِكان يقتربان من القفص يلوذان به. صفَّقَ والدي. فتحَ ذِراعيه يُفزِعهما يحُثُّهُما على اللحاقِ بالبقية. غيَّرا وجهتهما يسيران

بتعثُّرٍ إليَّ عِوضًا عن القفص. أقعيتُ مُتلهِّفًا فاتِحًا ذِراعيَّ للحمامتَين. شيء من قلق انتابني. بودِّي أن أعانقهما. ضربَ والدي الأرض بقدمَيه وهو يصيح. تملَّكهُما الذُّعر. غيَّرا وجهتهُما ثانيةً. يُحلِّقان على ارتفاعٍ منخفضٍ ويحطَّان على الأرض. زينة ورحَّال يعرفان ما ينتظرُنا في السَّماء. هرع والدي وراءهما. يُصفِّقُ بقوَّةٍ ثُمَّ يدُسُّ إصبعَين أسفل لِسانِه ويُصفِّر. هرَبا إلى السَّماء يحومان فوقنا قبل أن يطيرا في اتجاه المدينةِ أخيرًا. مكثتُ أنظُر إليهما يُخيَّلُ لي أنهما يلتفتان وراءهما، ينظران إليَّ أثناء تحليقِهما. أرسلتُ نظري وراءهما إلى أن ابتلعتهُما الزُّرقة. كنتُ أُردِّدُ في سِرِّي اسمَيهِما، وأنا الذي أطلقتُ عليهِما الاسمين في اليومِ الرابعِ من خروجِهما من بيضَتيهِما؛ زينة ورحَّال.

عِرزال

تنبَّه إلى البيضَتين في كفِّهِ وقد فقدا دِفءَ فيروز. ارتبك. أطبقَ كفَّيه عليهما برفق. قرَّبَ كفَّيه إلى شفتيه وأخذ ينفُخُ ببطء. عبث! أعادهُما إلى العُشّ وأطبقَ زجاجَ النافِذة. ظلَّ ينظرُ بعيدًا يبحثُ عن حمامتِه الجبانة. لعلَّها المرَّةُ الأولى التي تبيضُ فيها! حمامةٌ غبية! هي لا تعرفُ ما في داخلِ البيضتين، لو أنها تدري لصفعت كفِّي إذا ما مددتُها نحوَها عوضًا عن الهرب! البحرُ أمامه على مدِّ البصر، عالي الموج. لأولِ مرَّةٍ منذُ أمسِه لا يُبعِد نظرهُ عن البحر. يُحدِّق في أمواجِه بعينين حمراوين ناضحتين بالكراهية.

يغيب في ذكرى بدَت بعيدة، ليست أكيدة. كان بسروالِه الأبيض الداخليّ يقطرُ ماءً، محمولًا بين ذراعيّ والِدِه، وأمُّه تصرُخ

على رمالِ السَّاحِلِ، بعد أن خاضَ أزرق في الماءِ موغِلًا في العُمقِ حتـى كتفَيـه. همـسَ بأُذُن الصَّغير. جرِّب الغرقَ مرّةً، تتعلم السِّباحة. جرِّبَ الغرقَ مرَّات. ابتلع ماءً كثيرًا. أوشك أن يبكي. إذا بكيتَ سوف أتركك للغرق! ظلَّ يضربُ الماءَ بكفَّيه. يُحرِّكُ ساقَيه في كلِّ اتجاه. يقترِبُ من أبيه يمدُّ له ذراعَيه. يتشبَّثُ به يحوِّط عُنقَهُ. يدفعُه أبوهُ بعيدًا عنه يُخيِّرَهُ بين أن يموت غرقًا أو أن يصيرَ رجُلًا يُجيدُ السِّباحة. املأ رئتيكَ بالهواء حتى تطفو.. اسبَح يا ولد ولا تبكِ، اسبح! لم يسبح. لم يُتقِن السِّباحة قط. لم يبكِ، لكنه كرِهَ البحر.

أشاحَ بوجهه عن البحرِ هربًا من ذاكِرتِه الزرقاء. حدَّق في البيضَتين الباردتَين يتناهبُه قلق. ابتعد عن النافِذة بضع خطواتٍ إلى الوراء. كيف يتحاشى الأزرق؟ كيف يتجنَّب مواجهة فيروز، يُبقي الجبانة على دكَّة النافذة، يختفي عنها ويكسبُ ثِقَتها إلى حينِ تفقس بيضَتَيها؟ رفعَ رأسه إلى أعلى الجِدار. لو أن للنافِذةِ سِتارة؟ كان لهذِه النافِذةِ ستارة! أجهشَ.

«تَحالُفُ الأضدادِ ضِدَّ قليلِ حيلة»

بلَّلت دموعي اللِّحافَ فوقَ ساقيّ بصيرة. لم يعودا! كنتُ مُغمِضَ العينين لعلَّها تنطِق، تُطمئنني أنهما لن يطيلا الغياب. مسحتْ على شعري. رفعتُ رأسي أنظرُ إليها. ملامِحُها هدوء وسلام. وجهُها إلى سقفِها؛ باطن السُّلَّم الذي يبعُدُ عن رأسها مسافة ذراعين، تبدو في عالمٍ آخر. صرتُ أنظرُ إلى سقف بصيرة، يبدو قريبًا بعيدًا. يُمَّه بصيرة! خخخـ. ضغطتُ على ساقِها لعلَّها تنطِق. قولي شيئًا! أدارت رأسها.

ِتف! رفعتْ وجهها ثانيةً إلى الأعلى حيث باطِن السُّلَّم. أمسكتُ بِكُمِّ ثَوبِهــا أصــرُخ. يُمَّـه بصيرة! مرَّ بنا والــدي يجُرُّه صُراخِي. صاحَ بي. يا ولد! انحنى إلى العجوز. راح يُصفِّقُ بكفَّيهِ صفقاتٍ متتالية عند أُذُنِها. يدسُّ إصبعَيه تحتَ لسانِه يُصفِّر. لم يهتزَّ للعجوزِ جفنٌ. عمياء صمَّاء خرســاء! قال لي ثم أشــارَ إلى رأسِــه. يا صبي! لا عقل لك؟! نهضتُ أركُضُ إلى السَّــطح. أدركتُ آخر السُّــلَّمِ حين جاءَني صوتُ والدي. ابكِ يا ولد! ابكِ وانتظر ما لن يعود! بكيت.. بكيتُ غياب زينة ورحَّال، وصمت بصيرة، وقسوة والدي.

عِرزال

خرجَ من نوبةِ نشــيجِه. نظرَ ناحية النافِذة. لن أضعَ سِــتارةً على هــذه النافــذة. علــى فيروز أن تتخلَّى عن جُبنِها، وعلى هذا الأزرق أن يفهم! انتبه إلى وجودِ فيروز متكوِّرةً على بيضَتيها. قطعَ المسافةَ بين سريرِه والمقعد الخشبي يحبو مثل فهدٍ بين أحراشٍ يتخفَّى عن فريسة. جلسَ على مقعدِه مُتسمِّرًا. أطرافُه باردة مرتعشة. شالُه الفيروزي على المشجبِ في الزاويةِ غير بعيد. الماء السَّاخِن جاهِزٌ في مطبخِه. خَشِيَ أن يُخيف الحمَامة إذا نهضَ إلى حيث شالِهِ أو إذا سارَ إلى المطبخ. ســحَبَ كفَّيــه إلــى داخلِ كُمَّي منامتِه الرَّماديــة. قرَّبهُما إلى فمِه وصار ينفُــخ. قــوَّسَ ظهرَهُ وضمَّ ســاعِدَيه إلــى صدرِه يُمعِنُ النظرَ في فيروز. يبتسِــمُ فــي حيــنِ يصطكُّ فــكَّاهُ من البرد. فيروز ليســت جبانة. فيروز تُحِبُّ صغيرَيها. غروووغ. هزَّ رأسه ضاحِكًا من دون صوت. ضحكته لم تستمر طويلًا حينما تنبَّه إلى زُرقةِ ما وراء النافذة. يُقطِّبُ حاجبيه.

يتذكَّر. طوَّقهُ أبوه بذِراعِه يسحبُه نحو السَّاحِل مثل خرقةٍ باليةٍ مُبتلَّة. على الرَّملِ في شِبه إغماءة. انحنت أُم عِرزال على صغيرِها تلُفُّه بمنشفةٍ وهي تبكي. استفرغَ الماءَ المالِح على جسدِه. الماءُ المالِحِ حليفُ الشؤم كما كانت تُخبرهُم بثرُهُم المجنونة في البيت القديم. هل أخبرتهُم بذلك حقًا؟! فتحَ عينيه. تنفَّسَ بعُمق. رأى والده غيرَ بعيدٍ يُشعِلُ لُفافةَ تبغ، يهزُّ رأسه، وينظرُ إليه بحسرة: جبان! أنا لا أُنجب الجبناء.

مضت ساعاتٍ قضاها عِرزال على مقعدِه الخشبي يُقابِل النافِذة. أشبهُ بتمثالٍ، لولا رعشة جسدِه. وحده الظلامُ يمنحُكَ أمانًا في ظرفِكَ هذا. لن أتحرّكَ قبل مغيب الشَّمس، حينها لن تشعري بحركتي يا جبانة. فيروز أيضًا لم تتحرَّك. راقِدةٌ على بيضتَيها تنظرُ بعيدًا في الأُفق كمن يتحرَّى عودة غائب.

«أفعى الدَّارِ لا تخون»

كنتُ أجلِسُ على الأرضِ في القفصِ الكبير. قفصُ الحمامةِ الأُم. أتنشَّقُ رائحة الغُبار والذَّرْق اليابِس. أضمُّ ساقَيَّ إلى صدرِي وأنظرُ إلى الفرخَين شقيقَيّ زينة ورحَّال في عُشِّهما داخل السَّحارة. كِلاهُما في حجم إصبع. مُطبَقةٌ أجفانهما مثل بصيرة. يرتعشان في غيابِ أُمِّهما التي خرجت من القفص، وحطَّت تلتقطُ شعيرًا ألقاهُ والدي على أرضِ السَّطح. هل يُعوِّضُ حضورُ البعضِ غيابَ بعضٍ آخر؟ لن أُسميهما زينة ورحَّال لأن صاحِبَيّ الاسمين سوف يعودان. بهتُّ حينما ظهرَ رأسُ الأفعى تُرابيّة اللون المُرقَّطة في شقٍّ صغيرٍ في

جدارِ زاوية القفص. ضممتُ ساقَيَّ إلى صدرِي أكثر أطوِّقُهُما بذراعيَّ بشــدَّة. أُراقِـبُ الأفعـى الصَّغيـرة أُخفي فزعي. بـوِدِّي لو أُنادي والدي الذي لا يؤمن بوجودِ أفاعٍ في البيت ليرى بعينِيه. ابتلعتُ لِساني. قطَّبتُ حاجبَيَّ بشدَّةٍ أهزُّ رأسي كأنما أُحاولُ إنزال غُرَّتي على عينيَّ أكثر كي لا أرى. أخرجتْ الأفعى لسانها المشطور. خرجت من شِقِّ الجِدار تنسلُّ بنعومة يسـبِقُها لِسـانُها كأنه عصا الأعمى يتحسَّـس مسـلكها. تسلَّلتْ إلى السَّـحارةِ الخشـبية التي يتوسَّـطُها العُشّ. تسـارَع نبضي وانتفضَ جسَدي. قطعتْ أفعى الجِدارِ طريقَها مرورًا بين الفَرخين المرتعشين. اختفـى ذيلُهـا وقتَ ظهرَ رأسـها من الجانبِ الآخر للسَّـحارة. مضت تزحفُ بنعومةٍ مُخلِّفةً بيتَ الصَّغيرين وراءها. اختفت في شقِّ الجدار المقابـل. نهضـتُ أدعكُ عينيَّ وأنـا أُحدِّقُ في موضعِ اختفاء الأفعى. أُنقِّلُ بصري بين شقِّ الجدار والعُشِّ وشقِّ الجدار المقابل. تأكدتُ من سـلامةِ الصَّغيرين. رحتُ أركُض خارج القفص. انتصبتُ أرنو بعيدًا نحو الجنوب مُبتسِمًا. كانت الشَّمسُ قد دنت للغروب. ما دامت أفعى الدَّارِ لا تخون، فإن حمام الدَّار..

عِرزال

يغيبُ النُّور وراء نافِذتِه. تتوارى الشَّمسُ في مغرِبِها. إنارةُ غُرفتِه مُطفأة. فيروز لم تأكُل شـيئًا منذُ سـاعات. تسـلَّل في خِفَّةٍ إلى الخِزانةِ فـي الممـر. حمـلَ في قبضتِه حفنة بذور. لفَّ الشَّـالُ الفيروزيّ حول عُنُقِه ثم مضى في ظلمة المكان نحو الحمامةِ حذِرًا. تجاوزَ المسافةَ المعتـادة، اقتـرب إلـى النَّافـذة أكثر. لم تنتبه له فيـروز وقد اختفى في

الغرفـةِ غيـر المضـاءةِ يبتلِعُـه الظـلام. فتح النافِذة بحـذر. لم تتحرَّك. اكتفت تسـحبُ رأسـها إلى صدرها مترقِّبة. ضيَّقَ عينيه من شِـدَّة بردٍ نفحَ وجهه. غاصَت رقبته في شـالِه الصوفيّ مترقِّبًا. أصدرتْ هديلها مرتابةً. اتسَعَت عيناه. حاكاها: غروووغ. مرَّر قبضتَهُ المرتعشةِ ببطء. فزعـتْ. طـارت فيـروز من دون أن تصفعهُ بجناحِهـا كما تمنَّى. حالَ غـروب الشَّـمسِ دون ابتعادِها. لاذت بسـعفةِ النخلـةِ المضطربة. نثرَ البذورَ في الهواءِ غاضبًا. ضربَ الدكَّة بقبضتَيه. طيري يا جبانة!

أخذ يُحلِقُ فيما وراء النافِذة. لم تعُد الزُّرقة تُلَوِّن البحرَ والسَّماء بعد غياب الشَّمس. كأنه ينتبِه للأمرِ أوَّل مرَّة. يُمكِنني أن أتصالح مع السَّماء والبحـرِ علـى حالِهما هذه! أطبـق النافِذة وأقفلَ نحو الحمَّام. سـوف تعود. يجبُ أن تعود. وسـوف تفقِسُ البيضتان، وسـاعتها لن تتخلـى عنهُمـا أبـدًا. أفزعَـه منظرُه في مِرآة الحمَّـام. وجهُه باهتٌ بين رماديٍّ وأزرق. إنه البرد! أوجَدَ لنفسِه تبريرًا. ألصقَ ذِراعَيه إلى جسدِه فيما يُشبِه وقفةً عسكرية. نفخَ صدرَهُ. غروووغ.

* * *



صباحٌ ثالِث

«.. ابتلعتهُمـا الزُّرقـة. لـم يعُـد يراهُما. أخذَ يُلـوِّحُ بيديه. يصيحُ بهمـا: رحَّـال.. زينـة! ثـم أطبقَ أسـنانه على طرفِ ثوبـه وراح يركضُ كالمجنون!».

هذا الكابوسُ الأزرق يجيء بتفاصيل جديدة يومًا تلو آخر! طال مكوثه في السَّرير، مُغمض العينين يسترجع صورًا ومضَت في منامِه، لعلَّه يخدعُ نومَهُ يستدرج كابوسه يُبقيهِ مُدَّةً أطوَل. لكنه شأن كلِّ شيءٍ ليس لنا يدٌ في حدوثه أو تجنُّبه! أحداث يُقرِّرُها مجهولٌ في نومنا وحوادث تصنعها الصُدفة في يقظتنا، وكُلُّها أشياء بلا معنى. تنهَّد عِرزال وقد فقدَ أملهُ في ساعةِ نومٍ إضافية. قِبلتُ بك يا كابوس وما قِبلتَ بي! التقطَ الهاتف وجفناهُ مُطبقان على حالِهما منذ استيقاظِه. ابهامُه يتنقَّل بين الأرقام بحركة تلقائية. هو لا يدري أنه نسِيَ الرقم، لو سُئِلَ يومًا عن رقم طليقتِه فإنه سَيلوذُ بالصمتِ. هو يتصل كلَّ صباحٍ منذُ أمس وِفقَ ذاكرةِ اصبعِه التي تحفظ موضِعَ الأرقام في مفاتيح الهاتف. انتظرَ المجيبَ في الناحية الأخرى. لا مُجيب. لم يأبه كثيرًا بعدمِ الرَّد على غير عادة. اعتدل جالسًا على السَّرير. يُميلُ رأسَهُ يمينًا ويسارًا، يلامسُ كتفيه بأُذنَيه، يُطقطِقُ عِظام رقبته. فتحَ عينيه ببطءٍ على زُرقة النافِذة. لم يعُد اللونُ مزعِجًا مثل أمس: ما دامت فيروز رابضة في الجوار. تنهَّدَ وهو يشاهِدُ حمامتَهُ الأثيرة تحشرُ منقارها

فـي منقـار أحـد الفرخَيـن، لعلَّـهُ رحّال الصَّغير في حيـاةٍ جديدة، كأن أُمَّه تُجبِرُه على الأكل. جسدُ فيروز يهتزُّ بعُنف تبذُلُ كلَّ ما في وسعِها لتودِعَ سائِلِ جوفِها في جوفِ الصَّغير. الفرخُ يُحرِّكُ جناحَيه الورديَّين العاريـين، إلا مـن زغـبٍ أصفر، كأنما ينازِعُ ويلفظُ أنفاسـه مُسـتفرِغًا روحه. نقلَ عِرزال نظرةُ إلى الفرخِ الآخر، لعلَّها زينة! يُحدِّقُ فيه وقتَ ينتظرُ الفرخُ الجائع من أمِّه التفاتة. رأسـهُ إلى الأعلى مُطبَق الجَفنين صامتٌ مُتأهِّبٌ بلا حراك.

«اتِّكاءُ رجاءٍ على صُدفة»

لا شيء في السَّقفِ يُبرِّرُ التفاتَ بصيرة إليه طيلة الوقت. سقفُ بصيرة، باطِنِ السُّـلَّم القريب من رأسـها، عتيقٌ تقشَّـرَ دِهانُه منذُ ما لا أدري، أحـالَ الزمـنُ بياضَـهُ صُفرةً ضاربةً إلى البُني، ينبثِقُ بينه الرَّماديُّ كاشِفًا عنه تساقط قشور الدِّهان القديم. أحدُ شقوقِ السَّقفِ يُشبِهُ الفم. لو أنه ينطِق! شـقٌّ آخر يُشـبِهِ العين. أتُراه يرى؟ يُخيَّلُ لـي أن لا أحد يعـرِفُ العجـوزَ بقـدرِ مـا يعرفهـا باطنُ السُّـلَّم، أو أن بصيرة لا تعرِفُ شيئًا في الحياةِ غير ما يهمِسُ به إليها سقفُها الواطئ. من أين لها يقينها بعـودةِ حمـامِ الـدَّارِ ووفـاء أفعاهـا؟! يُمَّه بصيرة! إذا كُنتِ تسـمعينني ابصقي في القصْعة أرجوكِ. وجهها إلى أعلى لا يتحرَّكُ فيها شيء إلا ارتفاع صدرها وانخفاضِه تشـهقُ وتزفرُ بانتظام. تشـبِكُ أصابع كفَّيها المسـتَنِدتَين إلى حِجرها. أُثني سـاقَيَّ تحتي، أُريح كفَّيَّ على رُكبتيَّ كمـا لـو كنـتُ في صـلاة. أنظُرُ في وجه العجوز أتحرَّى دلالةً تنسِـفُ يقينَ والدي. دسَستُ كفَّيَّ أسفلَ لحافِها الصُّوفي أُدلِّك ساقَيها. إذن..

إذن لو كنتِ حقًّا لا تسمعينني، إذا كنتِ كما يدَّعي أبي؛ عمياء صمَّاء خرساء، أرجوكِ يُمَّه بصيرة ابصقي في القَصَــ. لـم تُمهِلني بصيرة أُنهي جملتي. خخخــتف! طأطأتُ في خيبةٍ وأنا أحمِلُ قصْعة بصاقِها إلى رُكنِ الأواني أغسِلُه.

عِرزال

لا يـرى فيـروز. اشـرأبَّ عُنُقـه، يُطالِعُ النافِـذة، يتأكَّد من غياب الحمامـةِ الأُم. أزاحَ لحافـه عـن منتصـف جسـدِه. حـثَّ خطـوَهُ نحو الصَّغيرين. أسندَ كفَّه إلى زجاج النَّافذة ينظرُ إليهما. سرَت في ذراعِه رعشـةٌ اسـتقرت في مؤخرة رأسـه. الطقسُ ما زالَ بارِدًا. أمعنَ النظرَ في الفرخَين المرتعشين، بودِّه لو يحملهُما إلى داخل غرفته يمنحهُما شيئًا من دفء، لكن الغرفة باردة أيضًا! استدار يمشي نحو المشجب في ركن الغرفة. حملَ شاله الفيروزي. لفَّهُ حولَ عنقِه ودسَّ الدبُّوس يُثبِّتُه قبل أن يمضي إلى مطبخِه يعِدُّ قهوته.

«إمدادُ الوَهْمِ ذخيرةَ اليأس»

خرجـتُ مـن المطبـخ أحمِـلُ طبقًا فيه بيضتان مسـلوقتان أزلتُ قشـرهُما ونثـرتُ فوقهمـا مِلحًـا وفُلفُـلًا أسـود، وكوبَ حليـبٍ منحَهُ الزعفـرانُ صُفـرةً شـهية. دأبـي أغلـي الحليب كلّ صبـاح، بعد دقائق أمضيها مُقعيًا في حَوشِ الغَنَم إلى جوارِ قُطنة؛ مِعزَتي البربرية البيضاء. أُشمِّرُ عن ساعِدَيَّ أحلِبُها برِفق. ملمسُ ضرعِها ودِفؤهُ يمنحاني شعورًا غريبًا. أنظرُ إلى عَينيها السـاهِمَتين بعيدًا. أنا أُحِبُّ قُطنة والكُلُّ يعلم؛

الدَّجاجات وذَكَر الطاووسِ وأُنثاه وديوك الحَبَش. أمضي معها أوقاتًا طويلةً أُحدِّثها. لا يقطعُ حديثي إلا صوت الجرسِ الذهبي الصَّغير المعقود بشريطةٍ زرقاء في عنقِها وصوت بصيرة بين دقيقةٍ وأخرى. خخخخ. أصمتُ ثوانٍ إلى أن: تِف! أستأنفُ بعدها حديثي مع قُطنة. يُقاطعني صوتٌ يجيءُ مِن ورائي. تُحِبُّ المعزةَ يا تَيس ؟! يُناكِفُني والدي كلَّما لمحَني أتحدَّثُ معها في حوشِ الغنم. أرتابُ من نظراتِه الفاحِصَةِ للمعزة. يضحكُ مُردِّدًا مثلًا أكرهُه: «معزةُ الدَّار تُحِبُّ التَيسَ الغريب!». لم أفُه بكلمة. اكتفيتُ أُفكِّرُ بالغريب، والغريب.. أنني شعرتُ بالغَيرة. والِدي لا يُحبُّ قُطنة، حاول حلبها مرارًا، لكنها لم تمنحهُ حليبًا قط كما تفعلُ معي عن طيب خاطر.

مضيتُ إلى أسفلِ السُّلَّم حامِلًا كوبَ الحليب المغليِّ الأصفر في يد، وفي يدِي الأُخرى طبقُ البيضَتَين. أنا أكره سلقَ البيضِ أو أكله. أتخيل الفرخَ محشورًا في البيضةِ، مستقرًا في قُعر القِدر المليئة بالماء. أكادُ أسمع صيحات النجدة كلَّما ازداد الماء سخونةً، يهمدُ الصوت عند درجة الغليان، ولكن.. ينبغي أن تعيشَ بصيرة، ولكي تعيشَ العجوز؛ ينبغي أن تأكل. بصيرة يجبُ أن تعيش إلى الأبد، وإلا فسوف يستحوذ أزرق على كُلِّ شيء. قرفصتُ على بساطِ الحصيرِ مقابل العجوز مثل كلِّ صباح. أُمسك مؤخرة رأسها وأُقرِّبُ كوبَ الحليبِ من شفتيها أسقيها. أهرسُ البيضتين بين أصابعي الصَّغيرة أمزِجُ بياضًا بصفار، أصنعُ ما يُشبه الهريسة. أُكوِّرُ لقيماتٍ أدُسُّها بين شفتيّ العجوز اليابِسَتَين. أُطالِعُ وجهها الناظِرِ إلى الأعلى أبدًا. ترتسمُ على وجهِي علامات رضى كُلَّما فتحت فمها منتظرةً أن ألقمَها المزيد.

أتُراها تعرِفُني كما أعرِفُها؟ أصمتُ أُقلِّبُ سؤالي في رأسي. أتُراني أعرِفُها كما أظن؟ أفرغُ من إطعامها ساهِمًا أتحرَّى أثرَ سؤالي على وجهها. لا أثر. أنظر إلى الشَّرخِ في سقفِها الواطئ. أنت وحدكَ تعرِفُ كلَّ شيء! لا تلبثُ بصيرة طويلًا بعدما أُفطِرُها. يمتقع وجهُها. تطبقُ جفنَيها عاقِدةً حاجِبَيها قبل أن تنتشر رائحةٌ كريهةٌ في موضِعها. أمضي نحو المطبخ أحمِلُ الكوبَ والطَبَق الفارِغَين. أُشمِّر عن ساعِديَّ عائِدًا إلى أسفلِ السُّلَّم، مُلقيًا خِرقة على كتِفِي حامِلًا دلوَ ماء. كثيرةٌ هي الأشياء التي أقوم بها على مضض، أُجبِرُني على فِعلها؛ على رأسِها سلق البيض والتنظيف أسفل بصيرة وإفراغ قصعتها من البُصاق، وانتظار زينة ورحَّال. أنا لا أملكُ خياراتٍ أخرى. لا أعرِفُ شيئًا آخر عدا أن أُذعِنُ لفعلِ ما لا أُحِب مِن أجلِ مَن أُحب، وأنا أُحِبُّ بصيرة، وصرتُ أُحِبُّها أكثر، بل صارت العجوز موجودةً أكثر مُذ رحلتْ أمِّي. أشتاقُ أُمِّي.. أُحبُّها كثيرًا. أُحِبُّ غناءها فجرًا. كانت مثلي تُحِبُّ الحمامَ وهديلَهُ. دائمًا ما تُرَدِّدُ أغنية «نوح الحمامة»، وكُلَّما سألتُها عن سبب نوحِ الحمامةِ تُجيبُني: اسألها!

أرتقي دَرَجات السُّلَّم ركضًا. أُبطئُ خُطواتي في السَّطح أستشعر النسمات الباردة على وجهِي. أتمهَّل في السَّيرِ على الأرضِ المُغبرَّة مُنصِتًا إلى هديلِ الحمامِ فجرًا. يكفُّ الحمامُ عن هديلِه وَجِلًا فورَ ما أُدرك ساحة الأقفاص. ساحةٌ مثل بهو البيت غير المسقوفِ تحيطُه الغُرَف من كلِّ جانب، ساحةُ السَّطحِ مُربَّعةٌ تُحيطُها أقفاصٌ في جوانب ثلاثة. أجلِسُ على السحَّارةِ الخشبية منتصف السَّاحة في ظلمة الفجر، مثل تمثالٍ لا تصدر عنه نأمة. يطمئنُّ الحمامُ بعد هدأتي. يعودُ

يناجي بعضُه بعضًا على استحياء. هديلٌ يجرُّ هديلًا، حتى يصيرُ مثل أنشـودةٍ جماعية تتخلَّلُها زقزقة زرازير ما قبل الشُّـروق. أمكثُ مُطبِقًا جفنَيَّ مأخوذًا بسحر الأصوات كأنها تعتملُ في أعماقي. أكون ممتلئًا بالهديلِ غائبًا فيه، أتنفَّسُه، أستشعرُ دبيبَهُ على جسدي تنميلًا في باطِن قدَمَيَّ الحافيَتَين فوق الذَّرقِ اليابِس، مثلَ نملٍ يتسلَّقُ ساقَيَّ، ينتشِرُ مثل فراشـاتٍ في صدرِي قبل أن يسـتقِرَّ في رأسِـي مُخلِّفًا إحساسًا بلذَّةٍ لا أعرفها إلا مع قُطنة. أفتحُ عينيَّ مع بزوغ الشَّمسِ. أرفعُ رأسي عاليًا. عشـرات الحمامات تطوفُ في السَّـماء حول السَّـطح. أصرفُ الفِكرة تمامًا عن سؤال الحمام؛ لماذا تنوح؟

عِرزال

خرجَ من مطبخِه يُحيطُ كوبَ القهوةِ الساخِنة بكفَّيه. استدار في الممرِّ ليلِجَ غُرفتَه بظهره. نظر إلى انعكاس النافِذة في المرآة عن يمينه. لـم تعُـد فيـروز! ينقبـضُ صدره كما فـي كُلِّ مرَّةٍ تغيب. عسـاها تعود سـريعًا. اسـتدار بصـدرِه إلـى النافِذة يمضي إليها. فتَحَهـا ينظرُ بعيدًا، يُمشِّط الزُّرقة البغيضة بعينَيه. لا أثر. هو ليس متأكدًا من كونها صارت مـن أهـل الـدَّار بعد. الصَّغيران يرتعشـان بردًا. يرتعـش هو فزعًا. هل تتخلَّى عنهُما الجبانة؟! فيروز لا تفعل، فيروز طارت وسوف تعود مثل كلِّ مرَّة. وضع كوبَ قهوتِه على الطاولة إلى جوار المقعد. اختفى في المطبخ قبل أن يعود إلى غرفتِه يدخُلُها بظهرِه حامِلًا رغيف خبزٍ بين يدَيه. نظرَ في المرآة. وجدَ فيروز على الدكَّة. ابتسم مُطمَئِنًّا يهزُّ رأسه. فيروز حُلوة. فيروز تُحِبُّ صغيرَيها. كان يُفتِّتُ الرَّغيفَ ويجمعُ الفُتات

فـي كفِّـه. غـرووغ.. غـرووغ.. اطمئنـي. اقتربَ من نافِذتِـه المفتوحةِ مُحترسًا. استدار ببطءٍ يواجِهُها بصدرِه. كان مؤمنًا بأنها سوف تحمي صغيرَيهـا وقـد خرجا من البيضتيـن وتعرَّفت إليهما وألِفتهُما. مدَّ كفَّهُ مبسـوطةً بفُتـات الخُبـز. طارت فيروز. بهتَ الكهـلُ. تعالي! تعالي يا مجنونة! كان يُمنِّي نفسَهُ بأن تُدافع عن صغيرَيها وتصفع كفَّهُ بجناحِها! نثرَ قطعَ الخُبزِ الصَّغيرة على الدكَّة غاضِبًا. طيري يا جبانة! تِف!

«كُلُّ الألوانِ أزرق»

عزفتُ عن الكلامِ لأيام. صارَ لساني أقلامًا خشبيةً ملوَّنة. أمضي ساعاتٍ في سطحِ الدَّار، أفرِشُ أوراقي على الأرضِ المُغبرَّة والذّرقُ مِن حولي، أنظرُ إلى السَّـماءِ جنوبًا، أرسـمُ حمامَتَين تمضيان تحليقًا صوبَ المدينة. أحرصُ على تلوينِ حِجلَيهِما؛ أحدهُما أزرق، والآخر وردي. كنتُ أرسـمُ ما أرومُ إليه بدافعٍ أجهلُه. أرسـمُ وأُلوِّن من دون توقُّف. أنساني لساعاتٍ وقد تكدَّسَت الرُّسومات على الأرضِ أمامي، أُنقِّلُ بصري بينها وبين السَّماء الخالية. يرتسِمُ ظلُّ والدي مُنحنيًا على أوراقي. أرفعُ رأسي أنظرُ إليه مُمتقِع الوجهِ مُقطِّبَ الجبين. يُطلِقُ زفرةً طويلةً يهزُّ رأسه. أنتَ تهدرُ وقتك!

عِرزال

جلـسَ علـى ركبتيـه أمام النافذة المفتوحة واهِنًا مكسـورًا. يكادُ أنفه يلامس الفرخَين على الدكَّةِ. يُحدِّقُ فيهِما. يُمسِّدُ على ظهرَيهِما. مُطمئنـان لا تعرِفـان الخـوفَ يـا صَغيرَي.. لماذا تخـافُ فيروز؟ ها؟ ألأنهـا وحيـدة؟ أيـن زوجهـا؟! راحَ يفكِّـر. أتُـراه سـافر إلـى جزيرة؟

اضطـرب الكهـلُ وقـتَ باغتـه السـؤال الأخيـر. خيرٌ لكمـا أن أباكُما ليس موجودًا. نظرَ إلى نثارِ الخبزِ على الدكَّة. يلتقطُ قطعة بين إبهامِه وسبَّابتِه. يبللُها بين شفتيه. قرَّبَ اصبعيه من منقار أحدهما. لم يتوانَ الصغيرُ يفتحُ منقاره ويحرِّك لحمَتي جِناحَيه بلهفة. أنتَ أصغر من أن تعـرفَ الخـوف، أنا عرفـتُ الخوف مبكرًا، عرفته في السَّـماء، عرفته فـي البحـر، عرفتـه في والدي، لكـن أنت.. دسَّ عِرزال نتفة الخبزِ في جَوف الفرخ الذي أخذ يُحرِّكُ رأسـه يحاول ابتلاعها، لكنه لفظ نتفة الخبز. صغيرٌ على التهام طعامِه لوحدِه. تلفَّت عِرزال يتأكد من غياب فيروز. أمعن النظر حوله كأنما يخشى أن يتنبَّه أحدٌ لفِعلِه. التقط نتفة خبزٍ أخرى. بلَّلها بين لسانِه وشفتِه حتى أعادها إلى ما يُشبه العجينة. دسَّها في منقار الصَّغير. أسندَ كفَّه برفقٍ على ظهر الفرخ. قرَّب وجهه أكثر. أطبق شفتيهِ على المنقار وراح ينفُخُ بلينٍ في حين ينتفضُ الفرخُ تحت كفِّه. راقبَ عِرزال نتيجة الفِعل جالِسًا على ركبتيه ممسِكًا بإفريز النافِذةِ بيدَيه. لم يلفُظ الفرخُ طعامه. ترقرقت دموعُ الكهلِ في عينيه. كـرَّر الفِعـلَ مـع الفرخ الآخر وهو ينتفض بُـكاءً من غير صوت. يهتزُّ جسـدُه بعُنف ويختنق بعبراته وهو ينفُخ في جوفِ فرخِ الحمامِ حتى ابتلـع نتفـة الخبـز المبلولة بريقِه. نجح في إطعامِهما. أخذ يُنقِّلُ بصره بين الاثنين وشـفته السُّـفلى مُتدلِّية ترتعش. أسـندَ قدَمَيه إلى الجدار أسفل النافذة كأنما يدفعه. انسحبَ بمؤخرتِه على الأرضِ إلى الوراء. ضمَّ سـاقَيه إلى صدرِه يُغَمغِم وسـط نشـيجِه. زينة.. رحَّال. فتح عينيه على وِسـعِهما. لمعت في رأسِـه فكرةٌ أفضى بها ذِكرُ الاسـمين. انتزَعَ دبُّـوس الشَّـالِ مـن أسـفلِ عُنُقِه والتفتَ إلى خِزانـة الممر. صارَ يحبو

مخافـة أن يُفـزعَ فيـروز فـي حال عودتهـا. وقفَ يفتحُ بـاب الخزانة. يُمشِّـطُ رفوفهـا بعَينيـه؛ ثيـابٌ نسـائية باليـة، صوَرٌ بالأسـود والأبيض لامرأةٍ مفروقة الشَّعر بجديلتين طويلتين، كيسٌ شَبَكيٌّ يحوي دزينتَين مـن كريـاتٍ زجاجيـة، نبِّيطة وبندقية صيد هوائية وجَرَسٌ ذهبيٌّ صغير معقـودٌ بشـريطةٍ زرقـاء، قِطعتـا دَيْـرَم ملفوفتان بمنديـلٍ أزرق، قماطٌ وردي، قماطٌ سماوي الزُّرقة، مصَّاصَتَي أطفال وقصعة خزفية وجريدةٌ مُصفرَّةٌ أوراقها، وصورة عائلية لا يجدُ نفسه فيها. جلسَ على رُكبتَيه. عبـثَ فـي الأدراج السُّـفلية قبـل أن يجـدَ بُغيته؛ عُلبـة حلويات قديمة صدِئة، أخرج منها بكرةَ خيوطٍ صوفِيَّة. اقتطع الكهلُ جزءًا من الخيط، عقـدَ طرفَـهُ فـي منتصف دبُّوسِ شـالِه قبل أن يحبو نحـو دكَّةِ النافِذة. حمَلَ أحدَ الفرخَين في كفِّه يتحقَّق من جنسه.

«الأسماءُ عَتَباتُ الخُلود»

كنتُ قد أوشـكتُ أن أجلِس على السـحَّارةِ الخشبية في منتصفِ سـاحةِ الأقفاص، لكنني تنبَّهتُ إلى وقوفِ والدي في زاوية السَّـطحِ، يبدو منهمكًا في شيء، بين الجدار ولوحٍ خشبيٍّ يصُدُّ الرِّيح. تقدَّمتُ نحوه يدفعُني فضول. حدَّقتُ في والدي الذي يحمِلُ في قبضتِهُ فرخًا صغيرًا، يرفعُ كفَّهُ الأخرى مُمسِـكًا بطرفِ خيطٍ بين سـبَّابتِه ووسـطاه، تتدلَّى في آخر الخيطِ إبرةٌ معقودةٌ في منتصفها. لم يلتفت إليَّ. اكتفى يُنبِّهُني همسًا. لا تتحرَّك! وقفتُ ساكِنًا أُراقبُ تأرجُحَ الإبرة مثل بندول السَّـاعة. سـألته مـاذا تفعـل؟ لم يُجِـب. راحت الإبـرةُ تتأرجح بحركةٍ مسـتقيمةٍ بيـن رأس الطَّيـرِ وذَيلِه. هزَّ والدي رأسَـهُ. ذَكَـر! التفتَ إليَّ.

ماذا نُسميه؟ هي المرَّةُ الأولى التي يطلبُ فيها مِنِّي أن أُطلِقَ اسمًا على إحدى الحمامات. لم أدَّخِر وقتًا كأنما انتظرتُ سؤاله منذ زمن. رحَّال! مطَّ شفتَيه مُستحسِنًا الاسم. تدارك. لا تُصدِّق هذه الخرافات، أنا أتسلَّى. أعادَ الفرخَ إلى القفص. حملَ الفرخَ الآخر يُكرِّرُ اللعبة ذاتها. صارت الإبرةُ تتحرَّك فوقَ جسدِ الفرخِ بشكلٍ دائري. أفلتَ ضحكةً من أنفِه. أُنثى! التفتَ إليَّ ينتظرُ مني تسميةً. عقدتُ حاجبَيَّ أُفكِّر. ابتسمتُ وأنا أُرطِّبُ شفتَيَّ كأنما أستطعمُ حلاوة الاسم في فمي قبل أن أقول:..

عِرزال

زينة.. زينة! ردَّدَ الكهلُ وهو ينشج. يمسحُ دموعه بظهرِ كفِّهِ والصَّغيرة في يده الأخرى ما تزال. أعادَ غرزَ الدبُّوسِ في شالِه الفيروزي مُستسلِمًا. وضع الصَّغيرة إلى جوار أخيها برِفق بعدما أجرى اختباره عليهِما. أطبقَ زجاج النافِذة. مضى إلى مرآةِ الحمَّام وهو يُفكِّرُ، هو لم يرفض أن يطلقَ الاسمين على أخويّ زينة ورحَّال عندما كان صغيرًا عبثًا. سوف يعودان في حياةٍ أُخرى، يربُضان على دكَّةِ نافِذتِه بعد سنوات طويلة. تسمَّرَ أمام مِرآتِه في الحمَّام. أفزعته صورته على وجهِها وهو يُحدِّقُ فيها. من أنتَ؟! ها؟! أطالَ النظرَ في انعكاسِه. بشرتُه شاحِبةٌ داكِنة وهالات سوداء تحيط عينيه الحمراوين بلونِ الدَّم، وشعيرات رماديَّةٌ طالتَ في ذقنِه. رفعَ كتِفَيه نافِخًا صدرَهُ عاقِدًا حاجِبيه. أطبقَ جفنيه، ثُمَّ باعدَ بين ذِراعَيه يضرِبُ بهما الهواء كأنه يُحلِّقُ مُبتسِمًا. صارَ يذرُع الحمَّام يدورُ مُغمِضًا عينيه. حمامُ الدَّار لا يغيب.. لا يغيبُ يا أزرق.. غروووغ!



صباحٌ رابع

«..نهـضَ عـن الأرضِ. وقـفَ على أطرافِ أصابعِـه ينظرُ بعيدًا. ابتلعتهُما الزُّرقة. لم يعُد يراهُما. أخذَ يُلوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رحَّال.. زينة! ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

جاء كابوسُه صامتًا إلا من نداءاتِه للصَّغيرَين، وصوتُ نغمٍ قديمٍ يُـراوحُ بيـن هديـلٍ وأغنيـة تتردَّد في ردهات البيت القديم. شَـخَصت عيناه ينظرُ إلى سقفِ غرفتِه. أمي ؟! حملقَ في سقفِه ذي اللونِ الباهِت والدِّهانِ المتقشِّر. اعتدلَ جالِسًا في سريرِه. راحَ يحكُّ صلعتَهُ ويتلفَّت ساهِمًا في زوايا الغرفة، كأنما أصواتًا قديمةً تتردَّدُ في المكان.

«لوعةٌ بهيَّة»

أُحِـبُّ أن تهـدِلَ الحمامـة الأُم أكثر من أي حمامةٍ أُخرى. هي لا تكُـفُّ هديلهـا حتـى وقتَ تصمتُ حماماتِ السَّـطحِ ليلًا. تهدِلُ بنغمٍ شجيٍّ مُغاير. لا تُغمِضُ عينيها، تحت سماءٍ مُتوهِجة النجومِ في غياب القمـر، ترنـو صـوبَ الجنوبِ سـاكنةً. صرتُ أُحاكـي هديلَها، أُجيده لكثرة ما أمضيتُ الليالي أُنصِتُ إليه. تنبَّهتُ ذات مساءٍ إلى أن الحمامةَ الأُمِّ وحيدة، وحدةٌ عارضة إلى حين عودةِ صِغارها، لكن، لم أسألني يومًا أينَ هو ذَكرُها. كان في الجوارِ دائمًا. أتذكره لا يُطيلُ غيابًا إلا أنه لم يعُد. كنتُ أُحِبُّ في زوجِ الحمامِ حُسنَ عِشرتِه. لا يتخلى واحِدُهما

عن الآخر منذ ارتباطِهما ما دام كلاهُما على قَيدِ الحياة. يتشاركان بناءَ العُشّ، يتناوبان الرُّقودَ على البَيض وجلبِ الطعام وتغذية الأفراخ. يكادُ من لا يعرف الحمامَ مِثلي لا يُميِّز بين ذكرٍ وأُنثى. كلاهُما يقومُ بجزءٍ من الدَّورِ ذاته إخلاصًا لحياةِ صغارِهما. أنا أُحِبُّ الحَمامَ لأنه مُخلِصٌ لعائلتِه، وفيٌّ لِدارِه. لكن غيابَ زوجِ الحمامةِ الأُمِّ ومن ثمَّ غياب صِغارها بعد أيامٍ، في رحلةٍ بَدَت بلا عودة، نَسَفَ كُلَّ إيماني بطبيعةِ الحمام.

عِرزال

أخذ يترنَّم بشَدوٍ قديم في ذاكرتِه وهو ينظرُ إلى دكَّة النافِذة. فيروز تُطعِمُ صَغيرَيها. هبطَ من سريرِه يحبو ببطء على الأرض الباردةِ يمضي نحو المطبخ. ينظرُ من وراءِ كتِفِه إلى الثلاثة وهو يبتسم. نهضَ فور ما أدرك الممرَّ خارج الغرفة. استدار يطلُّ بنصفِ وجهِه. يُطيل النظر إلى فيروز المنشغلة عنايةً بصَغيرَيها. الأُمومة أمرٌ عظيم، لكن! لماذا تخافُ الأُمهات؟ أنا أكره الخوف. هو لا يتذكَّر من أُمِّه إلا صوتها؛ غناءً أو خوفًا. أطبقَ جفنَيهِ بشِدَّةٍ يحاولُ عبثًا أن يتذكَّر شيئًا آخر؛ ملامحها، ثيابها أو رائحتها. لا شيء غير الغناء والخوف منذ أمس. يولي ظهره لغرفتِه ونافِذةِ فيروز. يمضي نحو المطبخ يُجهِّزُ قهوة كلِّ يوم.

«الغناءُ زادُ الرُّوحِ في الأيام الحزينة»

وحدَها الحمامةُ الأُمّ تخيطُ الليلَ بالنهارِ هديلًا. رابِضة تولي

صدرها شطرَ الجنوب وجهة الغيابِ والإياب، إلا أن أيًّا من الغائبين لم يعُد. نحلَ جسدُها مُذ غاب زوجها وبقية الصِّغار الذين أطلقهم والدي في الصَّحراءِ للمرَّةِ اللا أدري. مالت رقبتُها، تهدَّلَ جفناها على مُنتصَفِ عينيها. صارت ريشًا على عظمٍ واهن، وأنا مُنصرفٌ عن كُلِّ التحوِّلات الطارئةِ عليها، غائبٌ في سِحر الهديلِ، خدرٌ يتسلَّلُ إلى داخلي من مسامات جِلدي. أنظرُ إلى الحمامةِ الأُمِّ ملتوية الرقبة بشفقة. أخشى أن يُصيبها بورقية، صَرَع الحمام، حُزنًا على صغيرَيها. أُطمئنُ نفسي بأن لو أصابها المرض لانتبه والدي، وعرَّضَها للشمسِ لثلاثةِ أيام بعد نتف ريشِ رقبتِها ودهنِه بالنّشوق. إيغالي بالتفكير كاد أن يُفقِدَني صوابي، ماذا لو استمرَّ المرض؟ أعرِفُ والدي لن يتوانى عن فصلِ رأسِها عن جسدِها! أدرتُ ظهري أمشي على أطرافِ أصابعي خِلسة نحوَ السُّلَّمِ نزولًا، خشية أن تقطع هديلها الشَّجي.

أُطوِّق رأسَ قُطنة بين ذراعَي في حَوشِ الغنمِ أهمسُ لها. الحمامةُ الأمُّ لا تكُفُّ هديلَها. نحلَ جسدُها أصابها المرض، لكن الهديلَ كُلَّما ساءَت حالُها صارَ أكثر سِحرًا. الحمامةُ الأُمُّ تتأسى بالغناء عِرزال! قالت قُطنة. كادَ قلبي يفرُّ مِن بين أضلُعي وقتَ بادرني الصَّوت. أحكمتُ شدَّ ذراعَي حول رأسِها كأنما أحاول خنقها لِئلا يُبادرني الصَّوتُ ثانية. نفضتُ رأسي أُنبِّهُني. المعزةُ لا تنطق! أفلتُّ رأسها وقتَ ملأتْ الحَوش بِثغائها. فرَّت هاربةً تلوذُ بألواح الصفيحِ والخشب. لم تبدرُ الكلمات إلا مِني! رحتُ أُمنطِقُ ما سمِعت ولكن.. أن يجيءَ الصَّوت مِنِّي يعني أن بصيرة هي الأخرى لم.

جفَّ ريقي، وكانت بئرُنا مالِحة يومها.

عِرزال

خرجَ من المطبخِ بكوبِ القهوةِ يسيرُ على أطراف أصابِعه مُقفِلًا إلى غرفتِه. فيروز ليست هنا. طلَّ على زينة ورحَّال الجديدَين في عُشٍّ الذَّرْقِ والرِّيشِ والأسلاكِ والعيدان الخشبية. صارا أكبر حجمًا وهُما في عمر أسبوعٍ يُغطِّيهِما الزَّغَبُ وقد استحالَ لونه داكِنًا. مُكتنِزان يبدوان في صِحّةٍ جيِّدة. جلسَ على كُرسيِّه يُحملِق في امتداد الزُّرقة وراء النافذة. يمسحُ السَّماءَ بِعَينيه نزولًا إلى البحرِ مضطربِ الموج. عيناه مفتوحتان على البعيد، لكنه ينظرُ إلى ما يومِضُ في رأسِه؛ سفينة عملاقة توليه مؤخِّرتها تمضي مُبحِرةً عند تلاقي الزُّرقَتين. ردَّد ما جاء في أُغنيةٍ قديمة: «عبِّروا مضنوني، يا أهل المراكب، عبِّروا مضنوني». تنهَّد. الأزرقُ، منذ الأزل، هو لون الغيابِ والفقد!

«فتقٌ في ثوبِ حقيقةٍ ورُقعةُ كَذِب»

مسحتُ على ظهر قُطنة المفروق. أتوسلُ سماعَ صوتِها ثانيةً بعد يومين. تخيلي قُطنة نتفَ والدي ريش رقبتِها، بقيَ الشَّعيرُ على حالِه في قفصِ الحمامةِ الأُم! لم تمسَّ حبَّة واحِدة، لكنَّها ما زالت تَهدِل! نظرَت المعزةُ إلى عينيَّ وهي تلوكُ البرسيمَ بغير اهتمام. صدِّقيني قُطنة! هي حزينة، ولهذا هي دائِمًا تُغنِّي! المعزةُ لم تزَل تُبحلِقُ فيَّ بغَير اكتراث، لا تنفكُّ تُحرِّكُ فكَّها الأعوَج برتابة فيما يُصدِرُ جرَسها رنينًا باهِتًا. هربتُ بنظري عن نظرتها مُطرِقًا. أمسكتُ بعودِ برسيم يابِس.

رحتُ أرسِمُ خطوطًا في التُراب بين قوائم المعزة. هي حزينةٌ بسببِ هجرِ إخوتك عِرزال! التفتُّ إلى قُطنة مُنتفِضًا. ماذا قُلتِ؟! مَن هي ؟! المعزةُ تنظرُ إليَّ ببلاهة ولِسانُها متدلٍّ خارج فكَّيها. اغرورقت عينايَّ. ليس لديَّ إخوة. مسحتُ دمعًا عَلِقَ في مِحجريَّ. أنا لستُ حمامة كي تصير الحمائم المسافرة إخوتي! لِسانُها الوردِيُّ لم يزل مُتدليًا. أخرجتُ لِساني. قرَّبتُ وجهي إلى وجهها بحذر. أغمضتُ عينيَّ. ريقُكِ عذبٌ قُطنة! رحتُ أضحكُ في خجل. أولتني المعزةُ مؤخِّرتها مُبتعِدةً عني وجَرَسُها الذهبيُّ الصَّغير يُصدِر رنينَهُ. رحتُ أُحدِّقُ في أسفلِ ذيلِها المنتصب شارِد الذِّهن.

عِرزال

تنبَّهَ من شرودِهِ وقتَ حطَّت فيروز على دكَّة النافِذة. ابتسم. فيروز! قطَّبَ حاجبيه يتفكَّر في الاسم وقد لفظَهُ لأول مرَّةٍ بصوتٍ مسموع. رفرف الاسم في أُذُنَيه. فيروز فيروز فيروز. كرَّر الاسمَ وهوَ يجترُّ صُوَرًا قديمة. هزَّ رأسه يطردُ الصُّوَر التي صاحبت لفظَهُ الاسمَ. تسارع وجيبُ قلبِه. حكَّ صلعتَهُ مُغمغِمًا. تسلَّل مثل لِصٍّ إلى خِزانة الممر. فتحَ بابها الخشبيّ. نظرَ إلى باطِن الباب. جديلتان، واحِدَتهُما بطولِ ذِراع، معقودٌ آخِرهما بشريطتين فيروزيَّتين. لا يتذكَّر متى قام بتعليقِهِما. أسندَ كفَّيه إلى خشبِ الباب. قرَّب وجهَهُ يتشمَّم الجديلتين في نَفَسٍ عميق. لا! صرخَ مُطلِقًا لاءهُ من قاعِ جوفِه. أطبقَ باب خزانةِ الممرِّ بقوَّة. لم يجِد فيروز حينما دخل غرفته بصدرِه باهتًا ساهِمًا يتصبَّب العرقُ من جسدِهِ بغزارةٍ رغم البردِ في غرفته. جلسَ على

السَّـريرِ خائـر القـوى يُحلِقُ فـي الأرض. أغمضَ جفنَيه بشِّـدةٍ كأنما شـاهدَ في الأرضِ ما يوجِعه. ارتمى بظهره على سـريره وأطالَ النظر فـي السَّـقف. لمـاذا أنـتَ صامِتٌ هكذا؟ ها؟ أنت تعرفُ كلَّ شـيء.. كلَّ شيء. أغمضَ عينيه.

«اسمُها فيروز»

بالـكاد فتحـتُ عينـيَّ علـى مُنتصفِهمـا. كان والـدي قد أطلق حماماتِه الأربع للمرَّة اللا أدري. كثافةُ الغُبارِ أسفلَ السُّحُبِ أحالت السَّـماء فوق سـطح البيت حمراء كامِدة. الأرض والأقفاص وكلّ شيءٍ مُغطًّى بالتراب والطين كأنما زلزال مرَّ من هُنا قبل سويعات. هـو موسـم السَّـرَّايات غيـر مفهوم المـزاج. تهبُّ ريـحُ الكَوْس من الجنوبِ مشحونةً بالأتربة. لا تتوانى الرِّيحُ تُغيِّرُ اتجاهها دورانًا مع عقارب السَّاعةِ، ريحُ غربيةٌ عاصفةٌ مجنونةٌ لا تدوم، تنسحبُ تُغري ريحَ الشَّمالِ تعصِفُ بالمكانِ تهزُّ قصبات اللاقِطات الهوائية وتنزعُ الملابـسَ مـن حِبال الغسـيل. وميضُ برقٍ يتبعـهُ هزيم. زخَّات مطرٍ كثيفة توشـك أن تغسـلَ كلَّ شـيءٍ سـرعان ما تنقطع. سُـحُبُ غُبارٍ تُداهِم المدينة. يعاودُ المطرُ نزوله رذاذًا يُدرِكُ الأرضَ طينًا لزجًا. هُوَ يومٌ صعب بشهادةِ ملحِ البئر. مشيتُ على أرضِ السَّطحِ الزَّلِقَةِ بحذر. لاذَت الحمامات بأقفاصِها. كيف للحمامِ المُسافِرِ أن يستدلَّ طريقهُ إلـى هُنـا؟! كنتُ أسـألني. حثثتُ خطوي إلى قفصـي الأثير. اكتملَ نمـوُّ الفرخيـن الجديدَيـن. أبقيتُ على مسـافةٍ بيني وبينهُما. سـوف أنظرُ في شأنِهما، أُسميهِما، بعد أوبة زينة ورخَّال. أزحتُ غُرَّتي عن

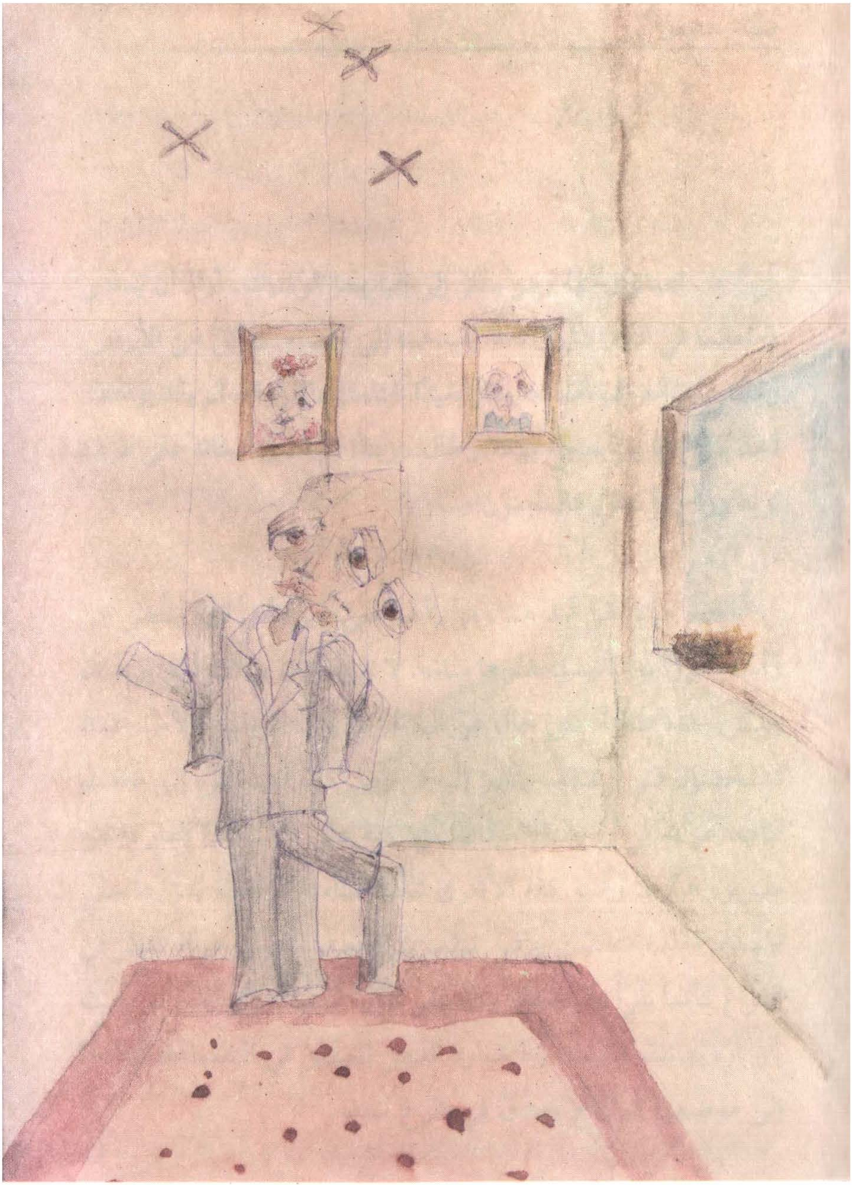
عينيَّ أتلفتُّ أبحثُ عن أمِّهِما المكلومةِ بنوبات الفقد. وجدتُ فوق السَّحَّارات الخشبية المليئة بالذَّرق الحمامات الأربع؛ غادي ورابحة وسفَّار وعوَّاد، ثابتات ملتصقات ببعضها البعض. أفلتُّ زفيرًا طويلًا. ابتسمتُ وقد فاجأتني عودتها قبلَ عصف الرِّيح. كدتُ أطأ ماذا؟ أطرقتُ أنظرُ إلى جسمٍ بين قدَمي الصَّغيرتين. شاهدتُ في الأرض ما أوجعني. الحمامةُ الأمُّ كأنما تحتضنُ الأرضَ مفتوحة الجناحين مُطبِقة جفنَيها يكسوها الغبار. أقعيتُ إلى جوارِها أنظرُ إلى عنقِها منتوف الرِّيش وقد فُصِل عن جسدِها. قُتِلَت فيروز. قلتُ لنفسي وأنا أتعرَّف الموت لأوَّل مرَّة وقتَ أطلقتُ الاسمَ أوَّلَ مرَّة. لا أدري لماذا أسميتُها فيروز بعد نفوقِها. كأنما أردتُ لشيءٍ منها يتمسَّكُ بالحياة، لم أكن أفقهُ سببًا إزاء التسمية غير حاجتي لأن أُبقيها هنا، في هذا الرأس، وكيف لشيءٍ أن يظلَّ خالِدًا من دونِ اسم! لم يأبه والدي كثيرًا لفقدِ الحمامةِ الأُم. مردُّ كلِّ شيءٍ إلى موت. كان يقول. لا يُلَطِّفُ حقيقةً ولا يكُفُّ يُذكِّرُ بها، وكأن الدِّماء لم تُلطِّخ يديه قَط.

عِرزال

فتح عينيه يُحرِّكُ بؤبؤيه على سقفِهِ باضطراب. نهضَ الكهلُ مُعتدِلا في جلستِه فوق السَّرير. رأسُه إلى الأعلى لا يزال، يُحلِقُ في شرخِ السَّقف. بماذا كنتَ تهمِسُ ؟! أنتَ الشاهدُ على كلِّ شيء. استفزَّهُ صمتُ السَّقف، وصوتٌ شجيٌّ في رأسه يتردَّدُ. نهضَ يمضي نحو ممرِّ الخزانة. فتحَ بابها ولم يلتفت إلى الجديلتَين المعلَّقتَين إلى باطن باب الخزانة الخشبي. يحاولُ أن ينظرَ إليهما ويصدُّهُ شيءٌ في

نفسِـه. رأسـه يرتجف. يدسُّ كفَّهُ في كيس البذور. يسـتديرُ ماضيًا في
السَّـيرِ إلى الحمَّام. يواجهُ انعكاسَـهُ في المرآة. شـعرُه منكوشٌ حول
صلعتِه مُنذ استيقاظِه. بسطَ كفَّهُ أمام وجهِهِ كاشفًا عن حبوب الشَّعير
راحَ يتشمَّمُها بنفَسٍ عميق. سَرَت رعشةٌ في جسدِه. نظرَ إلى صورتِ
فـي المـرآة يتحقَّـق مـن كونِـه هـوَ. العروق الحمراء تنتشـر فـي عينيا
الشَّـهلاوين. بدا لنفسِـهِ شـخصًا آخر. انحنى على كفِّه المبسوطةِ ثانيا
يلتهِمُ الشَّعيرَ. يعاودُ النظرَ في المرآةِ وهو يطحن الحبوبَ بين أسنانِه
غروووغ.. غروووغ!

* * *



صباحُ خامِس

«.. اصفرَّ وجهُهُ وهو ينظرُ إلى غيابِهما الوشيك. أرادَ أن يمضي وراءهما في التِّيه الأزرق لعلَّهُ يُعيدهما إلى حُضنِه. نهضَ عن الأرضِ. وقفَ على أطرافِ أصابعِه ينظرُ بعيدًا. ابتلعتهُما الزُّرقة. لم يعُد يراهُما. أخذَ يُلوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رحَّال.. زينة! ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

فتحَ عينيهِ عن آخرِهما. هزَّ رأسَه على غير دأبِه، كأنه ينفُضُ عن رأسِه صُورًا يوميةً يستحضرها منامُه. لا يريدُ أن يرى أكثر. لا يريدُ أن يتذكَّر. جِدَّةٌ طارئةٌ على حالِ عِرزال. هو لا يُريد أن يقبل بالأمر. عيناهُ تشخصان في السَّقف ينظرُ إليه في ريبة. كأنه انتبه لتوِّه إلى صمتِ أيامِه، عزلته في وحشةِ المكان. مرَّرَ كفَّهُ على المساحةِ الفارغةِ من سريرِه البارد. وضع كفَّهُ الأُخرى تحت مناميه الرَّمادية يُمرِّرُها على جسدِه. جِلدُه متغضِّنٌ جاف. تنهَّد. شردَ بعيدًا. تملَّت عيناهُ النظرَ في الفراغ كأنما يقرأُ نصًّا خفيًّا. مالَ على جانبِه يُمسِكُ بالهاتف. لم يعبث بأزرارِه يُهاتِفُ طليقته. بدا شاردَ الذهنِ يُحملِقُ في السَّماعة. أعادها إلى موضِعِها ثم راح يحدِّقُ في شرخ سقفِه.

«ويصيرُ الصَّمتُ جوابًا»

في الثالِثةِ عشرة كنت، أو الرابِعةِ عشرة ربما، عندما أمضيتُ وقتًا

طويلًا في حوشِ الغنم، مُندسًّـا تحتَ لوحٍ من الصَّفيحِ أحطتُه بألواحٍ خشبية، في غفلةٍ من الدَّجاجات وزوجِ الطاووس وديوك الحَبَش. كان الصَّيـفُ لاهِبًـا ورياح السَّـموم تُجفِّفُ العروق. قرفصتُ على الأرضِ فوق أعوادِ التبن الجاف، متحررًا من كلِّ شـيءٍ إلا سـروالي القطني. عبثتُ بضرعِ قُطنة ومسَّـدتُ شـعرها. طوَّقتُ عُنُقها بذراعَيَّ. وضعتُ رأسَـها بيـن كفَّـي ورحتُ أُحدِّقُ في عينيهـا. أصحيحٌ ما يقوله والدي دائِمًـا عـن معـزة الدَّار؟ هـل تنوينَ ترك بيتنا، قُطنة، لترحلي مع التَّيس الغريب؟! تنسَلُّ إليَّ حشرجات صدر العجوز في البهو. أصمتُ لثوان. رُدِّي عليّ قُطنـة، قولـي شـيئًا. تبصُـق بصيرة هناك. تُجيبُنـي قُطنةٌ هُنا صمتًا ودمعةً علقتْ في هدَبِها. قرَّبتُ وجهي إلى وجهِها مادًّا لِساني. لعقتُ دمعتها. أنتِ مثل بئرُنا المجنونةِ في وسـط البهو، تمنحين ريقًا عذبًـا أو دمعًـا مالِحًـا وفقَ مِزاجِكِ. أفلتت رأسـها مـن بين كفَّي تبتعدُ مُتقهقـرة. بـدَت مُرتبِكـةً تُحملِقُ في شـيءٍ ما علـى الأرضِ عند زاوية حُجرةِ الصَّفيح والخشب. انسلَّت مُسرِعةً خارج الحُجرة. التفتُّ إلى الزَّاوية أُعاينُ ذلك الشيء الذي نفرت منه قُطنة. جِسمٌ غير مألوفٍ مُلتوٍ شفيف أصفر. أفعى الدَّارِ مرَّت من هُنا. ارتديتُ ملابسي ومضيتُ إلى أسفل السُّلَّم أُفرِغُ قصْعة بصيرة.

عِرزال

أبعـدَ عينَيـه عـن شـرخ السَّـقفِ مُجفلًا. طرد خيالاتـه مع قُطنة. أخـرجَ كفَّـهُ مـن تحتِ منامتِـه خَجِلًا. نظرَ إلى النافِـذة. فيروز لـم تعُد تـدسُّ الطعـامَ في منقارَي صغيرَيهـا. تكتفي بوضعِه على الدَّكة. صار

بإمكانِهِما اليوم أن يأكُلا من دون مساعدةِ الأُم. ارتسمت ابتسامة هجينة بين جزعٍ وحبور على وجه عِرزال الكهل. ينظرُ بودٍّ إلى الصَّغيرَين وقد كساهُما الريشُ الرَّماديُّ الدَّاكِن. منقاراهُما ما زالا متورِّمين شأن أي حمامةٍ غير مكتملةِ النموِّ. إذا ما نُحِتَ المنقارُ واتخذَ شكلَهُ النهائي تكونُ دلالات اكتمال النموِّ قد تمَّت. أيامٌ قليلة وتطيران.. زينة.. رحَّال.. عِداني بأنكُما لن تُطيلا الغياب.

هرعَ إلى النافِذةِ مُسرعًا هذه المرَّة. طارَت فيروز. همَّ الصَّغيران يتبعانها. يقِفان على حافةِ الدكَّة بقوائِمِهِما الحمراء، يُصفِقان أجنحتهما من دون أن تتزحزح أقدامُهُما قيدَ إصبع. يجفلان. يُخفِقانِ في الفِرار. يتراجعان إلى آخرِ الدَّكة. يلتصِقان ببعضِهِما مُرتعشَين. فتح الكهلُ النافِذة. انحنى على الحمامتين المذعورتين. أنا عِرزال.. وعِرزال لا يُخيفُ أحدًا.. عِرزال ليسَ أزرق! ترك النافذةَ مفتوحةً. استدارَ نحو سريرِه ثانية. ألقى بظهرِه على السَّرير. يستفِزُّه السَّقف. أمسكَ باللحافِ يلقيه على وجهِه.

«طلقة في صدرِ قُطنة»

ضمَّ والِدي ساقهُ اليُمنى إلى صدرِه مُتكِئًا بركبتِه اليُسرى على الأرض. صدرهُ لِصقَ ظهري. فكُّهُ السُفليُّ مستقِرًا على كتفي الأيسر. يُطبِقُ كفَّيهِ على كفَّي المُمسِكتين ببندقيةِ صيدٍ هوائيةٍ غصبًا. فُوَّهة البندقيةِ مُصوَّبة إلى معزتي البيضاء التي أطلقها في البرِّيةِ قبل دقائق. أستشعِرُ رطوبةَ ودفءَ أنفاسِه ورائحة التبغِ رفقةَ صوتِه الهامِس في أذُني. احبس أنفاسَك يا ولَد قبل أن تضغط الزِناد. معزتي البيضاء

تبدو هادئة تحتَ شجرةِ صفصافٍ عملاقةٍ شَمَخَت في البرِّية. هانئة في أمنِها تُغَطِّسُ خطمها في بركةِ ماءٍ خلَّفها المطر. أتذكَّرُ طيورَ الشجرةِ متهيبةً مُرتابةً حتى خِلتُني أُنصِتُ إلى همساتِها تُنبِّه قُطنة الغافِلَةِ إلى وجودِنا. أتذكَّرُ الوَرَلَ زَيتي اللون الدَّاكِن المُغبرِّ على تلٍّ رمليٍّ غير بعيد، يستظلُّ بنبتةِ رمرامٍ يابِسة، مادًّا عُنقه كأنما يسأَلُ مُرتابًا مَن هناك؟! يمضغُ الهواء بفمٍ مفتوح، كأنما يُحدِّثُ نفسَهُ مُستنكِرًا كائنَين طارِئَين يُقلِقان راحةَ البرِّية. أتذكَّرُ مِلحَ دموعي على شفتَيَّ والخوفُ يطوِّقني بأمرَين؛ أن تُصيبَ طلقتي معزتي الأثيرة وأن يلمح والدي الدمعَ في عينَي. لم أضغطَ الزِّناد. والدي هو الذي فعل، أُقسِمُ أنه هو، لكن البندقية كانت بين يديَّ وكلُّ طيور البرِّ وزواحِفه تشهدُ ضدي. سقطت قُطنة على جانبها بين الرَّملِ والماءِ تُفرفِرُ وتضربُ الهواء بقوائِمِها. غابَ بياضُ صدرِها بِحُمرةِ الدَّمِ الذي تشرَّبهُ شعرُها وامتصَ التُّراب قليلَهُ. رفعتُ رأسي والدموعُ ملءَ وجهي أنظرُ إلى السَّماء أرصدُ روحَ بيضائي في مِعراجِها رغم أن طلقة بُندقية الصَّيد الهوائية لا تقتل حيوانًا بحجم معزتي. دفعني والدي من ورائي. ولد! اركض واحضرها قبل أن يسبقكَ إليها كلبٌ مسعورٌ أو صقرٌ جائع. أيُّ خِزيٍ أمالَ وجهي إلى الأرضِ ظهيرةَ يومي ذاك! اختنقتُ بشهقاتي كي لا يسمعها والدي. مشيتُ ثقيل الخُطى غير قادرٍ على رفعِ رأسي في حضرةِ الصفصافةِ الشَّامِخة وساكنيها. كنتُ أُنصِتُ إلى وشوشةِ كلِّ الكائناتِ تلعنُني. اركض يا ولد! صاح بي والِدي. ركضتُ مثل كلبِ صيد مأمور. سقطت مُتعثِّرًا بضعفي. أثرتُ حفيظة والدي. هزَّ رأسهُ حانقًا. استقمتُ والغُبار على ثوبي. ولجتُ المساحةَ الظليلة الكبيرة

أسـفل الشـجرةِ العملاقة. انحنيتُ بذُلٍّ. أمسكتُ بـ قُطنة الجريحةِ مِن قوائِمِها أحمِلُها كالمشـلولة. مسـحتُ سـوائلَ وجهي بكتِفي المُتربةِ حتى أحلتُ دموعي ومخاطي خيوطًا من الطين على وجهي. استدرتُ أواجه والدي أفتعلُ تماسُكًا. المعزةُ بين يدي رخوَة مُذعِنة تُصدِرُ ثغاءً واهِنًـا، يتدلى رأسـها مُتأرجحًا، والدَّمُ يرسِـمُ نقاطًـا تُحاذي خُطواتي. ناولته الصَّيد. تمتمَ يصِفُني لأوَّلِ مرَّة. رجل!

ركضتُ إلى أسـفلِ السُّـلَّم فور وصولي إلى البيت أندسُّ تحت لِحافِ بصيرة، مُتخفيًّا عن سقفِها العليم، سمعتُ صوتَ قرع أوانٍ في المطبخ. كان والدي مشغولًا بِـ قُطنة ينتزِعُ الطلقة مِن صدرِها الدَّامي. بكيتُ من دون صوت إلى أن خرج والِدي مِن المطبخِ يمسـحُ بظهرِ كفِّهِ حليبًا بلَّلَ شارِبه الكثّ.

بصيرة مولية وجهها إلى سقفِها المشروخ، ولا يزيدُها السَّقفُ إلا صمتًـا فـوق صمـت. لا هي تُحدِّثُ أزرق فتُقنِعُه، ولا هو يُنصِتُ إليها فيقتنِع. دسَّت كفَّها أسفلَ اللحافِ تُمسِّدُ رأسي.

عِرزال

أزاح اللحـافَ عـن وجهِـه مُبعِـدًا عينيه عن السَّـقف. مضى إلى مطبخِـه يُحضِّـر قهوتـه مثـل رجُلٍ آلي. وقفَ أمام الموقِد وقد أشـعل النار. بحلقَ في ماءِ القِدرِ مُضطرب الحاجبين كأنما يشاهِدُ أمرًا جللًا فـي قُعـرِ قِـدرِه. يُمعِـنُ نظرَه. فُقَّاعات صغيرة تنسـلُّ مـن القاع تنفجِرُ في السَّـطح. تناهى إلى مسـمعِه صوتُه القديم مُناديًا. رحَّاااال.. زينة! بهـتَ. أبعـدَ ظهـرهُ إلى الوراء مُبقيًا بصرَهُ علـى القِدر. تغيّر لونُ الماء

في نظرِه. زُرقةٌ يمقتها انبثقت في الماء السَّـاخِن. نفضَ رأسـه. جعل يقضمُ أظفاره مُبحلِق العينين. داهمَهُ صوتُه الآتي من أمسِه ثانية. أطبقَ كفَّيه على أُذنَيه في حين نداءاتِه القديمة تتزاحم داخلَ رأسِه. أدارَ ظهرَهُ للموقِد وأخذَ يدورُ في المطبخ مثل ذئبٍ جريح. النداءات في رأسِـه تُخالِـطُ خفخفـة الماء المغلي. التفتَ إلى القِدر. مضى إليها مُسـرِعًا. وقـف أمـامَ الموقِـدِ مُنحنيًـا مُتردِّدًا. يعقِـدُ حاجبَيهِ يُضيِّـقُ عينيه كأنما يبحثُ عن شيءٍ وراء البُخار الـمُنبَعثِ من الماءِ المغلي. غطَّسَ كفَّهُ اليُمنـى فـي القِـدر وهو يصيحُ بالصَّغيرَين. زينة.. رحَّاااال! أخرجَ كفَّهُ مُلتهِبَةً ثم راحَ يركضُ كالمجنون.

«صمتٌ على صمت»

ركضتُ إلى قُطنة في حَوشِ الغنم بعدما أفرغتُ قصْعة بصيرة، كأنما أطلبُ رضاها وغُفرانَ ما أُكرِهتُ على فِعلِه. وقفتُ لاهِثا وسطَ الحَوشِ أصيحُ مُتلفِّتًا. قُطنة.. قُطنة! يُجيبُني الصَّمتُ برحيلِها. لم تكُن عنـد الحَـوضِ البلاسـتيكي تكـرعُ من مائـه، ولا قُربَ أكوامِ البرسـيم تعتلِف، ولا تسـتظِلُّ تحتَ لوحِ الصَّفيح وراءَ ألواحِ الخشـب. فتَّشـتُ عنها في كل مكان. لا أثر إلا لِجرسِها الذَّهبي الصَّغير بشريطَتِه الزَّرقاء فوق البرسيم اليابس. ارتابت الدَّجاجات لجنوني وتناثرت في الزَّوايا تُنَقنِـق. انكمـشَ ذيلُ الطاووسِ الذي كان مُنهمِكًا بمُغازلةِ أُنثاه، هرَبَ صاغِرًا يكنِسُ الرَّملَ بذيلِه. اندسَّ إلى جوارِ أُنثاه وراء أخياشِ العَلَفِ فيمـا كان ديـكُ الحبَشِ يُحملِـقُ فيَّ، بوجهِه الأحمر، يصيحُ بي حانِقًا مُتخايِـلا أمـام إناثِـه المذعـورات. لم أُعِرهُ اهتمامًا وأنا ألتقِطُ أنفاسـي

أتفكَّرُ فيما قاله والدي. ما كدتُ أتذكَّر كلماته وأستعيدُها حتى لفظها ضاحِكًا: معـزةُ الـدَّارِ، يـا ولد، تُحِـبُّ التَّيس الغريـب! التفتُّ ورائي. وجدتُه واقِفًا يضُمُّ ذِراعَيه إلى صدرِه. أطبقتُ فكَّي أُشيرُ إليه بسبَّابتي. أنت تكذِب! صحتُ بِه. لطمني لطمةً أوقعتني أرضًا. أزرق لا يكذب! قـال، ثُـمَّ غـابَ تـارِكًا إياي وراء ظهرِه. اعتدلتُ في جلسـتي. نفضتُ التُّراب والتِّبنَ عن كتفي وذراعي ووجهي. ضممتُ ساقَي إلى صدري وأسـندتُ جبيني بين رُكبَتَي مؤمنًا بأن أزرق لا يكذب. رحتُ أرفضُ هامِسًا. حَمَامُ الدَّار لا يغيب. حَمَامُ الدَّارِ لا يغيب. ساعةٌ مضت. أكثر رُبَّما. رفعتُ رأسي أُرهِف سمعي. صمتٌ لا قِبَلَ لي بِه. بصيرة! نادَيتُها بصوتٍ عالٍ وعاودتُ الإصغاء أتحرى سماعَ صوتَها تبصِق في البهو أسفل سُلَّمِها.

عِرزال

أفلتَ صُراخًا، وهو يركُض كالمجنون، ضجَّت به شُقَّتُه. أسندَ ظهـرهُ إلـى جـدار الممر. قـرَّبَ كفَّهُ الملتهِبة إلـى وجهِه وقد تغضَّن جِلدُها وتورَّمَ واحمرَّ. عاد إلى مطبخِه يمضي صوبَ الثلاجةِ يعتصِره ألـم. دسَّ كفَّـهُ فـي كيسِ الثلج وأغمضَ عينيه. أمضى نصفَ سـاعةٍ علـى حالِـه هـذه قبـلَ أن يتنبَّـه إلى سَـيل الثلـجِ يعبرُ ذراعـه خيوطًا سائلةً تتجمَّع في مرفقِه وتقطرُ على قدمِه الحافية. أطرقَ برأسِه إلى الأرض. بركـةٌ مـن الماءِ تكوَّنَت أسـفلَ قدميـه فوق البلاط الأزرق. سـحبَ كفَّهُ من الثلاجةِ تارِكًا نتفَ جلدٍ ميتٍ بين قطع الثلج. فطِنَ للمرَّةِ الأولى إلى لونِ أرضية مطبخِه. أقعى يمدُّ كفَّهُ اليُسرى يُغطِّسُ

رؤوس أصابعِه في المـاء. جلسَ على رُكبتَيه. مالَ برأسِه يُدنيه إلى سَيلِ الثَّلجِ على الأرض. أحاط فمه بكفَّيه وهو يهمِس. رَحَّال.. زينة.. أنا.. أنا آسِف.

«ضجيجُ الصَّمت»

صمتٌ مُزعِج. ليس للصَّمتِ اقترانٌ بالهدوء، الصَّمتُ محض موت، والموتُ فَقْد. أنا أكره الفقد. رحتُ أحصي الثواني في سِرِّي يُسابِقُها وجيبُ قلبي. عشر. عشرون. ثلاثون. دقيقة. اثنتان. ثلاث. الصمتُ يُطَوِّقُ كلَّ شيء على غير عادة. داهَمني قلقٌ أعرفُ مصدَرهُ. كيف للدقائق أن تمضي هكذا من دون ذلك الصَّوت؟ أطلقَ ديكُ الحَبَشِ صيحتَهُ المجنونةِ كأنما تسرَّبَ إليه قلقي، يدفعُني لأُسرع وأطمَئِن على العجوز في البهوِ أسفلَ سُلَّمِها. أخرستُه بإشارةٍ من يدي. مِلتُ برأسي أُصغي علَّ صوتًا يتسلَّلُ من البابِ المُفضي إلى البهو، لكن البهو كان أبكم على نحوٍ مُريب. استقمتُ واقِفًا أجرُّ ثقلَ خطواتي خارج حوشِ الغنم مُتحرِّيًا مُرتابًا.

عِرزال

تسارعت أنفاسُه وقد بدا مثل مجنونٍ ينتظرُ مُجيبًا من بُقعة الماء على الأرض. استقامَ واقِفًا شاحِبَ الوجهِ لاهِثًا. أرسلَ نظره يحدجُ السَّقفَ غاضِبًا. حسنٌ! أسرَّ لنفسِه قبل أن يُسرع الخطوَ إلى خزانةِ الممرِّ يفتحُ بابَها الخشبي بقوَّة، غير مكترث لوخزِ الحروق في كفِّه. قصعةٌ خزفيةٌ وقعت من الخِزانة وتهشَّمَت. تجاهلها. تناولَ بندقية

صيدٍ هوائية. مسحَ عنها الغُبار بِكُمٍّ منامتِه. طوى سَبَطانتها. نفخَ فيها. ألقمَها طلقةً ثمَّ هرعَ إلى غرفةِ نومِه. أطلَّ برأسِه مُحترِسًا لِئلا تلمحهُ فيروز وقد آبَت لتوِّها إلى دكَّة النافذةِ المفتوحة. تقدَّمَ على رؤوس أصابِعِه مُصوِّبًا بندقيته إلى الحمامةِ الأُم. هذه الحمامة غير جديرةٍ بالحياة! ضغط الزِّنادَ بسبَّابةٍ ترتعش. أخطأها. فرَّت هاربة. أفلتَ البندقية على الأرض ومضى إلى النَّافذةِ مادًّا ذِراعَيه أمامه مثل أعمى يتحسَّس دربَهُ. التصقت الحمامتان ببعضهما على حافَّة الدَّكة. اقتربت يداه إليهما. زينة.. رحَّال! كاد يُمسِك بهما لولا أن صَفقا بأجنحتهما الهواء وأخذا يُحلِّقان باضطراب. بهت الكهلُ وهو ينظر إليهما وقد حطَّتا على سعفةِ النخلة التي صارت تهتزّ. انتفض. أطبقَ كفَّيه على إطار النافذة يدفعُ جسده لِولوجِها. حَطَّ بقدمَيه على الدكَّة ووقفَ مُنحني السَّاقَين يرتعش. لوَّحَ بيديهِ مناديًا باسمَيهِما يتوسَّلهُما. لا تذهبا! ولكن الحمامتين لم تستقِرَّا طويلًا على السَّعفةِ المضطربة. أطلَقتا أجنحتَهُما للريحِ فيما ظلَّ الرجُل واقِفًا بساقَيه المُقوَّسَتَين مُشرئب العُنُق يُرسِل نظره وراءهما.

«حمامُ الدَّارِ يغيب»

كنتُ مؤمنًا بأن بصيرة لا تغيب، غابت حمامتايَ الأثيرتان، غابت أُمِّي، وبقيَّت هي على قيد موتٍ مؤجَّل. ماتت بصيرة أسفل السُّلَّم وقتَ فقدِ معزتي الأثيرة. ذهبتْ مثلما جاءت هادئة ساكِنة. تلك التي لم أتيقَّن وجودها، رغم أنها موجودة مثل شيءٍ أكيد، كانت وقتَ غياب زينة ورحَّال وأُمي تبُثّني إيمانًا بعودةِ الغائب، ورحلت حامِلة

في مِزوَدِها وعودًا كاذبةً يومَ رحيلِ قُطنة. ما كنتُ لأنتبه إلى موتِها لولا افتقادي حشرجات صدرِها، ذلك الصَّوت المدموغ في ذاكِرة البيت. خرجتُ ثقيلَ الخُطى من حَوشِ الغَنَمِ مفجوعًا بخلوهِ من صاحِبَتي. وجدتُ العجوز فاغِرة الفمِ تحدِّقُ إلى السَّقفِ وقصعة البُصاقِ إلى جوارِها فارِغة مِن مُخاطِ صدرها.

مكثتُ أيامًا أسفل السُّلَّمِ أضمُّ رُكبَتَيَّ إلى صدري. أُسنِدُ إليهِما جبيني. أُمَنِّي نفسي بعودةِ بصيرة إذا ما رفعتُ رأسي أجِدُها، تُثبِت لي صِدقَ قولِها بشأن حمام الدَّار، ولكن صاحبةَ القولِ لم تعُد لأُصَدِّق، أو لأسألها عن عودةِ قُطنة وتكذيبِ حكايةِ التَّيسِ الغريب. اقتربَ مني والدي. انحنى بجذعِه يسألُني بين ريبةٍ وقلق. عِرزال! لكَ أيامٌ تمضي مُعظمَ الوقتِ أسفلَ السُّلَّم، ما بالك؟! رفعتُ جبيني عن رُكبَتَي أنظُرُ في وجهه. كان مُضطرب الملامح لا يُخفي قلقًا على غير عادة. لم أقوَ على إمساكِ رعشةِ شفتَي. أشتاقُ بصيرة. قلتُ له. مَطَّ شفَتيه رافِعًا حاجِبَيه يُحلِقُ في وجهي ومسحَةُ حُزنٍ لم أعهدها على وجهه. بصيرة؟! قطَّبَ حاجِبَيه. ألصق ظاهرَ كفِّهِ على جبيني يتحسَّسُ حرارتي. بصيرة مَن؟! لم أُحِر جوابًا. رحتُ أطوفُ ببصري على الركن الضيِّق حولي لعلَّهُ يفهم. هزَّ رأسَهُ آسِفًا. مضى نحو البابِ يهمُّ بالخروج. أنتَ تتوهَّم أشياء غريبة عِرزال! لم أُفكِّر أن أصرُخَ بِه أتهمهُ بالكذب، ليس خشية صفعةٍ يُفلِتها غضبُه، ولا تحاشِيًا لقولِه المُحتمل؛ أزرق لا يكذب، إنما لأني صرتُ مؤمنًا بأن أزرق لا يكذب، وأن بصيرة التي قالت إن حمام الدَّارِ لا يغيب، لم تصْدق، وغابت هي بعد حمام الدَّار! حتى عندما لمحتُ حمامةً شاخِصةَ العينين مريضةً لا تُشبه زينة فوقَ قفصِ

الحمامـةِ الأُم، يُطـوِّقُ إحـدى قائمتَيها حِجلٌ وردي، رفضتُ التصديقَ بأن مُلتوية الرقبةِ، تلك الكسـيحة، هي زينة أخت رحَّال، وقد أصابها صَرَعُ الحمام، هذه ليسـت حمامتي الأثيرة التي تاهت مع شـقيقِها في زُرقةِ صحراء الجنوب. من تُغَيِّبه الزُّرقةُ لا يعود.

عِرزال

غابـت الحمامتـان عـن نظـرِه في زُرقة السَّـماء. خلَـتَ دكَّتُه من كائناتِـه الوديعـة. شُـلَّ صوتُـه لم يعُد قادرًا على منـاداةِ من آمن بأنهما زينة ورحَّال. أزاحَ قَدَميه ببطءٍ إلى حافَّة الدَّكَّة. ألصقَ ساقَيه ببعضهما. فتحَ ذِراعيه مُنحَنيَ الظهرِ فيما يُشبِهُ وقفةَ استعداد غطَّاسٍ يهمُّ بالقفز. أغمضَ عينيه ثُمَّ..

بقي ساعاتٍ على حالِه تلك.. ثُمَّ..

* * *

أثناءَ ساعةِ تأمُّل

قُطنة

أغمضَ عينه التي ترى كلَّ شيء. أوغل في تأمُّلِه يستحضِرُ بعضَنا، واحدًا تلوَ آخر. يُقلِّبُنا في رأسِه ويعيدُ تكويننا. يلعبُ دورًا لا يُجيده. يلعبُ دورَ إلهٍ في أسطورةٍ قديمة.

كنتُ عالِقةً فيما يُشبه العَدَم قبل أن يستحضرنا مؤلِّفُنا ساعةَ تأمُّلِه. مؤلِّفُنا ومالِك أمرِنا وسقفُنا الآمن إن هوَ أحبَّنا. لهُ المجدُ الأدبيُّ عدَدَ مؤلَّفاتِه وما حمَلَتْ من حروفٍ وكلِمات. نُداهِنُه ونتوسَّلُ رضاهُ ولا نستَفِزُّه لِئلا يكتُبَ لنا نهايةً بائسة. مؤلِّفُنا موجِدُنا القوي الضَّعيف الصَّامِت المتورِّط الدَّائم في صُنعِهِ. يجيءُ بنا من عدَم، يقتُلُ فائضَ وقتِه برسم أقدارِنا. ينالُ مجدًا وشُهرة. ينالُ سُموًّا يليقُ ببهاءِ صُنعِه. مؤلِّفُنا الحقيقُ بكلِّ مجدٍ إن داهَمَهُ مَلَلٌ، عسى ألا يُداهِمه، يتركنا حيارى في دائرةٍ مُفرغةٍ، في جحيم الدُّرج السُّفليّ، نتخبَّطُ في صفحاتِه الناقِصَةِ على غير هُدى. كم مِن مخطوطٍ لم يُنجَز بسببِ عصيان شخصياتِه وتمرُّدها على مصائر قدَّرها لها. كم مِن لوحةٍ خانته ألوانها بما لا يروم قوله رسمًا. صار مصيرها الدُّرج السُّفلي المظلم في مكتبِه. أيُّ مصيرٍ أسوأ من أن يتخلَّى عنك كاتِبُك، يدفعُ بك إلى ظلامِ الدُرجِ مُعلَّقًا بلا نهاية؟!

مَثِلتُ بين يدَيه في ساعةِ تأمُّلِه. ساعةٌ استثنائيةٌ نادِرًا ما تجيء

تمنحُنا فرصة أن نقول، وإن بحذر. ساعةٌ نقتربُ فيها مِنهُ على غير عادة. في ساعةِ تأمُّلِه يحقُّ لنا ما لا يحقُّ في وقتِ الكتابة. ساعةٌ بُشِّرنا بها كثيرًا، أعيشُها للمرَّةِ الأولى. مثِلتُ أمامَهُ طائعةً مُستسلمة وقتَ عصتهُ الشخصيةُ الضَّعيفةُ عِرزال ولم تُلَبِّ نِداءه ساعةَ التأمُّل. أخفقَ في فهمِ شخصيةٍ ابتكرها. من تكون؟ ومن أين جاءت؟ كيفَ ولماذا؟

كنتُ في زاويةِ البيتِ العربي إياه، ذلك الذي أوجدهُ صاحِبُ النَّصِ. أثَّثَ المكانَ بكلِّ تفاصيله وحضَر صامتًا ينطِقُ وقارًا رغمَ حضورِه بثيابٍ رماديَّةٍ تبدو ثياب نوم. مرَّر نظرةُ على المكان مِن حولِه كأنما يتحقَّق من دِقَّةِ وصفٍ جاء في أوراقه. نظرَ إلى قِدرٍ معدنية فوق منقلة الفحم. رفعَ كفًّا ملفوفةً بضمَّادةٍ طبيَّة أمامَ وجهِه يتملَّى في باطِنها وظهرها، ثُمَّ ناءَ ببصرِه عن القِدر. تابعَ السَّيرَ في البهوِ القديم غير المسقوف. البئر في الوسط. الصورة العائلية على الجدار تضمُّ زوجين وأبناءهم الأربعة. الأرائك الأرضية والمسانِد ومفارِش الحصير والصُّندوق الخشبي الأسود المطعَّم بنقوشٍ ذهبية، كُلّ الأشياء في مكانها. راحَ يتحرَّكُ في المكان يُغيِّرُ تفاصيله. يُحيل أبوابَ الألمنيوم إلى أبوابٍ خشبية. يبدو الخشبُ ملائمًا أكثر. يوجِدُ صندوقًا حديديًّا عوضًا عن الخشبي. للزَّمن اشتراطاته! يصمتُ قليلًا قبل أن يُردِف مخاطبًا نفسه. ولما تُمليهِ عليَّ الذَّاكرة!

تقدَّم بضع خطواتٍ إلى أسفل السُّلَّم ينحني على بصيرة. خلَّفَ انحناؤه وقعًا مربِكًا في نفسي انحنى له كلُّ ما فيَّ. مرَّرَ كفَّهُ أمام وجه العجوز. تهلَّلَ وجه بصيرة وغَشِيَ وجهها الباسِم دمعًا غزيرًا. هذا أنت؟! تأخرتَ كثيرًا! قالت بصوتِها الضَّعيف. وهنتُ حتَّى مُتُّ.

تركتُ الفتى. لم يعُد لي مكانٌ هُنا فقد استحوذ أزرق على كُلِّ شيء.

دنوتُ من البئر القديمة وراء ظهرِه أُصيخ السَّمع. أنصِتُ إلى حوارٍ هامسٍ بين مُؤلِّفِنا والعجوز الباسِمةِ الحزينة. مؤلِّفُنا دامَ حرفهُ واتسعَ خيالُه يُحدِّثُها وتجيبه عن كلِّ سؤال، تمنحهُ فهمًا للنَّص. التفتت العجوز إلى السُّلَّم تزامُنًا مع نزولِ أزرق من السَّطح. أدارَ مؤلِّفُنا وجههُ تجاوبًا مع التفاتةِ بصيرة. بدا أزرق كما لو أنه لا يرى بهاء الكاتبِ وهالته التي تشعُّ في بهو بيتِه. هو في الحقيقةِ لا يرى سواي. بحلقت فيه بصيرة قبل أن تستجمع نُخام صدرِها. خخخـِتف! اهتزَّ الكاتبُ ضحِكًا ارتجفت له أركان البيت. مضى أزرق نحو البئر يحدجني بنظرةٍ مقيتة، في حينِ كنتُ أُبحلِقُ مُرتبِكةً نحو المؤلِّفِ والعجوز. التفتَ نحوَهُما صوبَ السُّلَّم. أعاد النظر إليَّ يستغربُ ارتباكي وشخوصَ عينيَّ نحو أسفل السُّلَّم. لم يرَ أحدًا. أرخى حبلَ البئرِ يزعبُ من مائها. غطَّسَ كفَّهُ في الدلوِ قبل أن يُقرِّبها إلى فَمِه يتذوق. بصقَ الماء. مالح! أسندَ كفَّيهِ إلى سطح البئرِ مُحدِّثًا نفسه. مياهُ المدّ! أزرق البغيضُ يوجِدُ لكلِّ شيء سببًا. هو لا يؤمنُ مثلنا بمزاجِ البئر القديمة؛ يجيءُ ماؤها عذبًا بشيرَ خيرٍ مُقبلٍ، يجيءُ مالِحًا نذيرَ شؤم. يعزو صاحِب البيتِ مِزاجُ البئر إلى مياهُ البحر قُرب بيتِه؛ تُفسِدُ في أوبِتها مدًّا مياهَ البئر!

التفتَ مؤلِّفُنا إلى صاحِبِ البيتِ يصيحُ به. يا أزرق! لكن أزرق مضى إلى السُّلَّمِ يمسحُ ملوحة شفتيه بكُمِّ ثوبِه من دون التفات.

كنتُ مُطرِقةً مُتردِّدةً وقتَ قطَّب مؤلِّفُنا حاجبَيه. نظرَ إليَّ شاخِصًا. تمتم: ممممـــــ هذه أنتِ يا قطنة! هززتُ رأسي. حدِّثيني عنكِ وعمَّا

يجـري هُنـا. أجفلـتُ. أنـا؟! فرَّ صوتي. ابتلعتُ ريقـي قبل أن أُردِف. كيف لي أن أعرِف ما لا تعرف؟ هز رأسه. مضى صوبَ مدخل حوشِ الغنم. كمشَ بكفِّه أعواد برسـيم من كومةٍ على الأرض. اقتربَ مني يرمي البرسيم على الأرضِ أمامي. واصلت حديثي. أنا لا أعرفُ عني إلا ما كتبتْ يدُكَ مانحة الحياةِ كاتِبة النهاية. تفكَّر مؤلِّفُنا وقد استحسن ردِّي. هذا جيِّد، معزةٌ حُلوة! رفع حاجبيه كأنه تنبَّه إلى شـيءٍ أغفله. ردَّدَ الكلمة كأنما يستطعم حلاوتها. حُلوة.. قُطنة حُلوة. يبدو أنه تلقَّفَ فكرةً في ساعةِ التأمُّل هذه. فكرةٌ لعلَّها تدفعُه لإنجازِ ما كَتَب وحماية النَّصِ من مصيرِ المخطوطاتِ الملعونةِ في حجيم الدُّرج السُّفلي.

أنتِ لستِ معزةً بربريةً بيضاء في حوشِ الغنم كما يزعُم عِرزال. هـذا مـا يُـزوِّرُه الكهـل في مذكِّراته، وهذا ما يُعرقِل سـيرَ النَّص. كنتُ أُنصِتُ إليه مُطرِقة. أنتِ بيضاء، بيضاء كالقُطن يا قطنة ولكنكِ لسـتِ معـزة. حـكَّ صلعتَـهُ قبـل أن يسـتطرد. مممـــــ. هذا جديـدٌ يمنحُني مسـاحةً أبني فيها جِسـرًا يعبرُ بي إلى الصفحة التالية. أخذ يذرُع بهو البيت جيئة وذهابًا يشـبكُ أصابعَ كفَّيه وراء ظهرِه. فلنقُل إنكِ أخته. أخت عِرزال. الوحيدة في ذلك البيت العربي القديم التي تُنصِتُ إلى أحاديثه وقت الضَّجر. ولسببٍ ما كتبكِ في مذكِّراته معزة بربرية. ماذا يكون السبب؟ صمَتَ قبل أن يتدارك. لا! لقد منحتِ عِرزال أكثر من الإنصـات فـي حَـوشِ الغنمِ وهذا لا يليقُ بأخـتٍ أكتبُها وِفقَ نواميس كتابتي! أنتِ ابنة عمِّه أو ابنة خالِه الأثيرة. لا! تردَّدَ قبل أن يقول. أنتِ ابنة «العبدة»، و«عبدة» بطبيعةِ الحال. تخضَّلت عيناهُ على نحوٍ مُفاجئ كأنما أخذته خيالاته إلى فاجِعةٍ قديمة. طأطأ يُمرِّرُ ظهرَ إصبعِه أسفلَ

عينَيـه. رفـع رأسـهُ ينظـرُ صَوبي لكنه بدا وكأنـه لا يراني. خليطُ حزنٍ وسعادةٍ خجلى بدَت على وجهِه الباسِم. قُطنة يتيمة الأب، «العبدة»، التي تكبرُ عِرزال بعشرِ سنواتٍ والتي تسكُن في عُشَّةٍ ضيقةٍ في حَوشِ الغنم. قطنة التي تزوّجَت من رجلٍ غريبٍ أخذها بعيدًا! انفجرَ مؤلِّفُنا، كَثُـرَ قُـرَّاؤه وأصابـت معانيه، يصرخُ وقد تصاعَـدت دماؤه إلى وجهه كأنَّما تذكَّر أحداثًا بعيدة. للمرّةِ الألف؛ صدقَ أزرق، معزة الدَّار تُحِبُّ التَّيسَ الغريب! عادت ابتسامته فجأةً. ولكنكِ لستِ معزة!

تنهَّـد مؤلِّفُنـا موغِلًا فـي تأمُّلِه غائرًا في الصَّمت. بدا حزينًا وهو ينظرُ إليَّ بإمعان. أخذَ يُقلِّبُني ويُعيد تشكيلي في رأسِه. بيضاء البشرةِ مُجعَّدٌ شـعري كسـتنائي اللون. واسِعة عينايَ دعجاوان كثَّتا الرُّموش. دقيقـة الأنـفِ والشَّـفتين. منحوتـة الخصـرِ مسـتديرة العجيـزة. ناهِدٌ بفستان مُشجَّرٍ ضيِّقٌ أعلاهُ يتَّسِع مع انحناءةِ الخصرِ نزولًا ينتهي عند حدِّ الركبتين. مكثَ في مكانِه مُبعِدًا صدرَهُ إلى الوراء يُحدِّق في صُنعِه كأنمـا ينقُصنـي شـيء يُكمِل صـورةً يعرِفُها. لطَّخَ باطِـنَ كفَّيَّ وقدمَيَّ بالحِنَّاء، ثمَّ تراجع عن دِقَّةِ الشَّفتين ومنحَهُما اكتنازًا وحُمرةً تميلُ إلى البُنيّ. أخذَ يُصوِّرُني في مواضِع عِدة على الأرض، بين العُشَّةِ ولوحِ الصَّفيح في حَوشِ الغنم، مُستسلِمةً بصُحبة عِرزال في غفلةٍ من أزرق. على أعوادِ التِبن اليابِس نسبحُ في عرَقٍ نكتشِفُ أنفُسنا بدهشةٍ أولى، ورعشةٍ ليس الخوف مصدرُها.

أعادني مؤلِّفي ماثِلةً أمامَه، في غُرفة مكتبِه، كأنه أتمَّ رسـمَهُ لما هو مُقبِل. هذه قُطنة التي أعرف. اذهبي واستنطقي عِرزال! قال بدهاء. شـغلتني تفاصيل غُرفة المكتبِ عن أمرِه. شـدَّتني لوحاتٍ غصَّت بها

الجُدران؛ رسـومات باهتة اللون لشـخصياتٍ شـائهة الوجوه جاحِظة العيـون، حمـامٌ وأطفالٌ وسـماءٌ وبحر، غُـرفٌ ضيِّقةٌ بلا أبواب، نوافذ تطـلُّ مـن ورائهـا حمَامـات دَميمـة، ورجـلٌ مربوطـةٌ أطرافـه بخيوطٍ موصولةٍ بالسَّقف. مرَّر المؤلِّفُ كفَّهُ مبسوطة أمام وجهي. هل سمعتِ مـا أقـول؟ اذهبي للكهل قُطنة. اسـتدرتُ مُطأطئـةً أمضي نحو وجهةٍ قديمـة. أردفَ مُنبِّهًـا وهـو يـدري بنيَّتي زيارة عِـرزال في حوشِ الغنمِ صبيًّا طيِّعًا ليِّنًا لا يُمانِعُ الحديث. استنطقيه كهلًا. لا حاجةَ لي به صبيًّا غُـرًّا ليـس لديـه ما يقول! أخفـضَ صوته كأنما يُحدِّثُ نفسـه. امنحيهِ فُرصةَ أن يراكِ في وقتٍ يحتاجُكِ فيه، ليُريكِ كيفَ صار، وكيف كان يتمنَّى لـو أنـكِ أمٌّ توأميـه. نفضَ رأسـه كأنه يطردُ أفكاره. أرسـل إليَّ نظرةً فاحِصةً مشَّـطَتْ جسـدي. خُذي مِنهُ كلَّ شـيء ولا تمنحيه أيَّ شيء. هُوَ أقسمَ لزوجتِه أن لا امرأةً بعدها. اكتفي بكونكِ امرأةً قبلها. كنتُ أُنصِتُ ولا أُدرِكُ لقولِه معنى. اسـأليه قُطنة؛ لماذا لم يُلقِ بنفسِـه من النافِذة؟

صارَ يُملي عليَّ دوري المقبِل:

اسـمعي ما أقوله قُطنة. سـوف أحمِلُكِ إلى شُـقَّتِه البارِدة. يكونُ عِرزال على حالِه سـاعةَ تركتُهُ على دكَّةِ النَّافِذةِ، مُطبَق الجَفنَين، وقد أمضـى سـاعاتٍ فاتِحًا ذراعيـه مُنتصِبًا، مِثل صليـب. هاجِسٌ يُخالِفُ رغبتَـهُ فـي الحيـاة يدفعُه إلـى القفزِ مِن النافِذة. هـذا الهاجِسُ هُوَ أنا. كاتـبُ النَّـص. لـن يكـون عِرزال قد فَهِمَ ما يجري له وما يدورُ حوله، يتساءل: ولكن عدم الفهمِ وحدهُ ليس مُسوِّغًا لإنهاء حياتي على هذا النحو. لو أنني فهِمتُها لربما أموتُ بغيرِ اكتراث!

سـوف يتنبَّـه إلـى رنين جـرسِ الباب، كأنما الجـرس يتواطأ مع رغبتِـه بعـدم المـوتِ علـى هذا النحو حيـن أخذ يرنُّ بإلحـاح. يُعاوِد عِـرزال عبـورَ نافِذتِـه دخولًا إلى الغرفة. يُزعجُـه ما يجهل فيها؛ نافذةٌ خاليةٌ من ستارةٍ أسقطها صغيران لا يدري متى وُلِدا أو إلى أين غابا، هاتِفـه المهمَـل الـذي يجيء بصوت طليقةٍ لا يتذكر زواجهُ منها، دفتر المذكِّـراتِ وبُندقيـة صيـدٍ هوائيـةٍ مُلقـاةٍ على الأرض. سـوف يوصدُ النافِذة ويُسند ظهره إلى زُجاجِها. لن يُمهله رنينُ الجرسِ لحظةً يلتقطُ أنفاسه. يُسرع الخُطى إلى الباب. مَن هناك؟ يفتحهُ. فتاةٌ تشعُّ جمالًا وفتنة تُبدِّدُ ظلمة الممر بحضورها. تِلك أنتِ كما يراك. تهبطين بنظركِ إليه وقد كنتِ تنظرين إلى سقف الممر. إليّ. يهمُّ يسألُكِ عن حاجتكِ. تُبادريـن: أيمكنني الدخول عِرزال؟ يبهت. يتراجع خُطوَتين. يُهمهم: غرابـةٌ تلـوَ غرابـةٍ تدحـضُ أيَّ فكرةٍ تُمَنطِق وجـودي! لن تملكي إزاء تأخره في الرَّدِ إلا أن تُعرِّفيه بنفسِك: أنا قُطنة. يُبعِدُ نظرةُ عن وجهكِ ينظرُ جانِبًا إلى دفتر المذكِّرات. يحدِّثُ نفسهُ: أظنني أتذكَّرُ شيئًا بشأن الاسم. أتذكَّرهُ قراءةً. يُعاودُ النظرَ إليكِ. أنتِ لا تبدين بالصورة التي قرأها في مُذكِّراتِه. تبتســمين مُتردِّدة: عيد ميلاد سـعيد. يرفعُ حاجِبَيه استفهامًا ولا يرُد.

يفتحُ البابَ على اتسـاعِه يدعوكِ للدخول. تسـبقينه إلى غرفة الجلـوس كأنـكِ تعرفيـن المكان جيِّدًا فيما يُلقي إليكِ بسـؤالِه وهو يوصِدُ الباب. أهوَ يومُ ميلادي؟! تنظرين إليه من وراءِ كتِفكِ وأنتِ تمضين نحو الأريكة بابتسـامة. نعم، أتممتَ الخمسـين اليوم. يمطُّ شَـفَتَيه. حسـنٌ.. يبدو الأمر مُمتعًا. يُشـيرُ لكِ يأذَنُ بالجلوس كأنما

تهتمين لإذنِه. تجلسين. أخشى ألا يكون الوقتُ مناسِبًا، تبدو مشغولا. يهزُّ رأسَهُ يدفعُكِ للحديث. لا أذكر أنني شُغِلتُ بشيء مفهوم اليوم أو أمس، كلُّ شيء يجري على نحو غريب، حتى هذا اللقاء سوف أتذكَّرهُ غدًا ضبابيًّا شأن كلِّ شيء مضى يوم أمس. سوف يجلِسُ على مقعدٍ أمامكِ، يُحدِّقُ في تفاصيل منحتُكِ إياها. تبدين مثل ثمرةٍ تتضوَّعُ أريجًا شهيًّا يكادُ يُفلِتُها غصنٌ أُثقِلَ بِعُصارة نُضجِها. شعرُكِ الثائر، عيناكِ الواسعتان ورموشكِ الكثَّة وأنفكِ الدَّقيق، عُنُقكِ الطويل وصدركِ الموشوم بشاماتٍ أربع، ثوبكِ الأبيض المشجَّر الضَيِّق في أعلاهُ يخنقُ نهدَيكِ النافِرَين ويتَّسِع نزولًا عند خاصرتك كاشِفًا عن ساقين ملساوَين كالشَّمع. من مِنَّا لا تُغريه صورةٌ كهذه؟! سوف يُحدِّثُ نفسه: أنا لا أعرِفُ تلك التي تبدو على معرفةٍ جيِّدةٍ بي!

يطولُ صمتُكِ وأنتِ تجولين بناظِرَيكِ في المكان مُتفحِّصةً؛ غرفة النَّوم والمطبخ والحمَّام. تتلكئين قبل أن تُفضي. شُقَّتك بلا أبواب عدا هذا! تقولين وأنتِ تُشيرين صوبَ بابِ المدخل. وجدتُها هكذا منذ أمس. يُجيبُكِ. تنهضين. تحُثِّين خُطاكِ مُتهادية كأنما تتحقَّقين من صِحَّة المكان. تتضوَّع غُرفة الجلوسِ برائحةٍ ينُثُّها جسدُكِ؛ حِنَّاءٌ ورَيحان. تمشين ببطءٍ تُلقين قدمًا أمام أُخرى بحذر، كأنما تسيرين على حبلٍ مُعلَّق. تقفين في الممرِّ أمام خِزانتِه الخشبيَّة العتيقة. لا تلتفتينَ إلى قصعةٍ خزفيةٍ مُهشَّمةٍ تحت قدمَيك. تفتحين بابيّ الخزانة. تُحملقين في محتوياتِها. تتلمسينَ جديلتين معلَّقتين في الباب من الداخِل. تعبثينَ بكيسٍ شَبَكيٍّ يغُصُّ بكرياتٍ زجاجية. تمرِّرينَ نظركِ

بين قِماطَين، وردي وسماويّ الزُّرقة، تتفحَّصين محتويات الخزانة؛ مصَّاصتَي أطفال وحِجلَين؛ ورديٌّ وأزرق. تُزيحين جرسًا ذهبيًّا صغيرًا، تتناولين منديلًا. تفكِّين عُقدته وتطمئنين إلى وجودِ تذكارٍ قديمٍ بِلَونِ شفتَيكِ أهديتِه له. تُطبقين باب الخِزانةِ ثُمَّ تختفين في غرفة نومِه. يتسلَّل صوتُكِ عاليًا. لا سِتارة لنافذتك! يرفعُ صوتَهُ يُجيبُكِ. هل من الضَّروري أن أُكرر إجابتي؟ تردِّين. لا، لأنك وجدتَها هكذا مُنذ أمس. يُفلِتُ ما يُشبِهُ ضحكةً من أنفهِ. بدأتِ تفهمين. تُجيبينه على الفور. وأنتَ؟ يجفل مُتسائلًا: إلامَ ترمي بسؤالها؟! أبدو وكأنني في لعبةٍ لا أعرِفُ قوانينها. يتردَّد قبلَ أن يسأل. أنا؟ ماذا بشأني؟ تتحكَّمين بصوتِكِ مُتنحنِحة. متى ستفهم؟ يلوذُ الجبانُ بصَمتِه.

تمكثين وقتًا غير قصير في غُرفتِه، يتبعُكِ يستطلعُ سببَ بقائِكِ صامتة هُناك. يُلفيكِ واقفةً تُسنِدين كفَّيكِ مبسوطتين على زجاج النافِذة تنظرين إلى البعيد، كأنكِ أزرق بصورتِه الأنثوية يتحرَّى أَوْبة الزَّواجِل. تميلين بجِذعِكِ تُديرين رأسكِ إليه. أين فيروز وصَغيرَيها؟ يضُمُّ ساعِدَيه إلى صدرِه. تبدين وكأنك تعرفين كلَّ شيء! تستديرين. تُسنِدين ظهركِ إلى النافِذة. أنا لا أعرِف، بيدَ أني رأيت. تدفعُكِ ملامحُ حيرتِه لأن توضِّحي. ورأيت الذي رأى. تنظرين إلى الأرض وَجِلة. تلمحين بُندقية صَيدٍ هوائية إلى جوار قدمَيّ عِرزال. تقولين بنبرةٍ راجية. أنتَ لم تقتُلها. يُطرِقُ برأسِه ينظرُ إلى البُندقية. حاولتُ ولكن. تتقدَّمين نحو الطاولةِ الصغيرة، تتناولين كوبَ قهوتِه الفارغ مُنذ أمس. لم تُعدَّ قهوتك اليوم! يرفعُ ذراعَهُ بين وجهِهِ ووجهِكِ. احترقت كفِّي اليوم بماء القهوةِ أثناء تحضيرها. يقول ثُمَّ ينفضُ رأسَهُ

وقد تنبَّه. آه نسيت أن أسأل! هل تشربين شيئًا؟ تومئين برأسِكِ نافيةً وابتسامتُكِ تدُلُّ على لا شيء. هذا غريب! تقولين وأنتِ تُحدِّقين في آثـار حـروقِ كفِّـه. يُواري كفَّهُ وراء ظهـرِه. لا أدري ما الغريبُ الذي تعنين، الغرابةُ تلُفُّ كلَّ شيء هُنا مُنذ. تُقاطِعينه. مُنذ أمس! يهزُّ رأسَهُ يُوافِقُـكِ. تجلسـين على حافَّةِ سـريره. تقوليـن والريبة على وجهكِ. شـخصٌ آخر حُرِقَت كفُّه نهارَ أمس. تنظرين إلى رأسِـه سـاهمة. لكَ صلعةٌ تشبِهُ صلعته بالمناسبة. تُمعنين النظر فيهِ كأنهُ يُذكركِ بشخصٍ مـا. أنـت تشـبِهُه كثيـرًا. يقتعدُ عِرزال الكرسـيَّ الخشـبي، تفصِلُ بينه وبينـكِ طاولتـهُ الصَّغيـرة. يُبحلِـقُ فيـكِ ممتعضًا. أيـن الغرابة في أن يحرق أحدهم كفَّهُ؟! فليحترق هوَ والعالم كلُّه! يتحدَّث المغَفَّلُ عن العالـم كأنـه يعـرِفُ شـيئًا عنه. تتَّسِـعُ حدَقتاكِ. عِـرزال! تصيحين به. تُردفين. أنا أتحدَّثُ عن أحدٍ يهمُّكَ أمرُه. تتداركين. أعني يهمُّه أمرك. يُطلِـقُ زفـرةً طويلـة يـكادُ يتبعهـا بـردٌ صـارمٍ لـولا محبـة يقرؤها في ملامحكِ تُلجِمُه. يتفكَّر في حدود وعيٍ منحتُهُ إياه: أنا لم أتعرَّف إلى أحدٍ يهمُّه أمري. في الحقيقة أنا لم أتعرَّف إلى أحدٍ بالمطلق! يُسـند ذِراعَيه إلى الطاولة. يدنو برأسِـه إليكِ. اسـمَعي! لا وقتَ لديَّ لحلِّ الأُحجيـات! يُقلِقُـه حُـزنٌ يُغشـي ملامِحَكِ بِلَونه علـى نحوٍ مُفاجئ. تنظرين إليه بعينين تكسوهُما لمعةٌ حمراء. تبدين وكأنكِ طبيبة جاءت لتخبرني بإصابتي بمرضٍ ما! يقولُ لكِ وتومِئين برأسِكِ نافيةً مُطَمئِنة. يُخيفُـه صمتُـكِ، علـى أن كلامًا تُخفينـه يبدو مُخيفًا أكثر من الصَّمتِ عن قوله. أنا لسـتُ طبيبة، ولحسـنِ حظِّكَ أنه لم يبتليك بمرض. أنا جئتُ رسـولةً لأعرفَ منك ما تريد ولأُخبِركَ بما ينبغي عليك فعله.

تُلقيــن كلماتَــكِ دُفعــةً واحِدة. يرتبك. يُســند ظهرهُ إلــى ظهر مقعدِه. رسولة؟! أنا لا أُريد شيئًا! ثُمَّ من هذا الذي أرسلكِ إليَّ؟ تنظرين إلى الأعلى من دون أن ترفعي رأسـكِ. يرفعُ رأسـه إلى السَّـقفِ وقد بدا شـرخه أكثر اتسـاعًا من ذي قبل. أنا أنظرُ إليكُما من هذا الشَّـرخ. هوَ يعـرفُ شـيئًا لا يُريـد معرفتـه. تهمسـين. هُوَ، سـقفُنا الآمـن، هُوَ من أرسـلني. تبديـن لـه مجنونـة وهوَ لا يُريدُ أن يكون فظًّـا معكِ. يحتدُّ صوتُهُ غضبًا عن إرادتِه. أنا لا أفهمُ شيئًا في الحقيقة! تستفزُّكِ كلماته، أو بالأحرى كلمتُه الأخيرة. تنهضين عن طرف السَّرير تدنين إليه. لا يجوزُ لكَ أن تتحدَّث عن الحقيقةِ عِرزال! يهمُّ بالنهوضِ من مقعدِه. تُسـندين كفَّـكِ إلـى كتِفِـه. تُجبِرينـه على الجلـوس. ابقَ جالِسًـا مِن فضلك. تجلسـين أرضًا على ركبتيكِ. تنظرين في وجهِه بشـفقةٍ كأنه يموتُ بعد قليل. تُربِكُه نظرتُكِ وأنتِ تهزِّين رأسَـكِ آسـفة. لا تنظر إليَّ هكذا! أنتَ لسـت حقيقيًّا عِرزال! سـوف يُبحلِقُ فيكِ شـاخِصًا. تُداهِمُه نوبة ضحكٍ مجنونة. لا يتذكَّر أنه ضحكَ بهذا القدر في حياتِه مُنذ أمس. تسـتمرُّ ضحكاته حتى تتوقَّف مُخلِّفةً ابتسـامة بلهاء على شـفتَيه. لا تُبادلينـه الضحـكَ ضحِـكًا ولا ابتسـامة. جامـدةٌ صِلـدةٌ تُحملقين في وجهِهِ مُشفِقة. يصيحُ بكِ. هذا يكفي! تُمسكين برُكبَتَيه تعتصرينهمـا. تترقـرق أدمُعُـكِ. تندفعيـن مُفضية. اسـمعني أرجوكَ! مثلما قُلتُ لك، ولكن اطمئن، أنت لستَ وحدكَ! تبتسمين على نحوٍ مُغاير وأنت تمسـحين دُموعكِ بظاهِر كفِّكِ، ابتسـامة ذات معنى هذه المرَّة؛ ابتسامة حُزنٍ مرير يشوبُها قلقٌ شفيفٌ إزاء ردِّ فعلٍ مُحتملٍ مِن عِـرزال. أنـا أيضًـا لسـتُ حقيقيـة على أيِّ حال، كلانـا، كلانا عِرزال

شـخصية في روايةٍ كتبها سـقفُنا الأعلى، مؤلِّفُنا. احتارَ في أمرِكَ في اليوم الخامسِ في النَّص، وقتَ طال وقوفُكَ على دكَّة النافِذة مُردِّدًا غيـر قـادر علـى القفـز! لماذا عِـرزال؟ لماذا لم تقفِز كمـا أرادَ لك؟! يُنصِت إلى إفضائِكِ وهو يحُكُّ صلعتهُ. أنا، أنا حقيقيٌّ كالشَّمس قُطنة! كصلعتـي هـذه التـي ألمسُـها بأطـرافِ أصابِعي! تدفعُكِ إشـارتُه إلى صلعتِـه لأن تتنبَّهـي. تُضَيِّقيـن عينَيـكِ تُمعنين النظـر في ملامِحه. هُوَ كَتبك على هيأتِه! يصرخُ بِك. كفى! تستقيمين واقفةً تُمسِكين بكتِفَيه تهُزِّينه. عِرزال افهم أرجوكَ! يمضي نحو النافِذة ينظُرُ بعيدًا وهو يفهمُ تمـامَ الفهـمِ مـا تقولين وينكـره. علَّمَتهُ المذكِّـرات أن أزرق البغيض علـى حـقٍ دائمًـا، وإن خالَـفَ كلامه ما يشـتهي. تعلَّمَ ألا يثِقَ ببصيرة التي أحبَّ قراءتها وهي تبيعُ وهمًا مُسـتحيلًا يطيبُ لهُ تصديقه، بيدَ أنه يكرهُ أن يقتنِع بفكرةٍ غريبةٍ تُفسِّرُ غرائب الأشياء مِن حولِه. دعيه يوغـل فـي تفكيـره سـاهِمًا فيمـا وراء النافِذَةِ قُطنة. ذاكـرةٌ معطوبةٌ لا تُسعِفُه لفهم كتاباتٍ ممهورةٍ بتوقيعِه لا يتذكَّر زمنَ حدوثِها، وخزانة ملأى بأشياءٍ لا يفقهُ سبب وجودِها. يُحدِّثُ نفسه ضَيِّقَ الصَّدر: هذه الفتاةُ تقول شيئًا أزرق. أزرق كالحقيقة التي لا يجبُ أن أتحدَّث عنها لأنني، وِفقَ قولِها، لسـتُ حقيقيًّا! يسـألُكِ مُسـتنكِرًا ووجههُ شـطرَ ما وراء النافِذة. هل تؤمنين بما تقولين قطنة؟! نحن حقيقيون! هُوَ.. هُوَ غير حقيقي، غير موجود! نحن من صنعه على هيأتِنا! تُفلتين ضحكة تهكُّـم. مـن اليسـير جـدًّا عليـه أن يدفعُكِ إلـى خارج شُـقَّتِه. يطرُدكِ ويُحذركِ من العودة ثانية، لكنه يدري إن هُوَ فعل، فليس بمسـتطاعِه نسـيان مـا قلـتِ. تُداهِمُـه رغبة بمعرفة المزيد، ليـس مُهمًّا أن تكوني

علـى صـواب، أو أن يكـون كلامُك منطقيًّا، لا منطق في هذا المكان فـي سـاعةِ تأمُّـلٍ بيـن فكـرةٍ وتدوينِهـا على الأوراق. لا شـيء يهمُّه، ذاكرتهُ التي يشُكُّ بها، وزمنهُ المبتور الذي يجهل آلية مرورِه، وأحلامه الليلية التي عجزَ خيالهُ عن تفسيرِها، ومُناكفته لتلك الحمامةِ التي لا يعـرفُ سـببًا لمحبَّتِـه ومُقتِـه لها في آن واحد. لـن يقوى عِرزال على الالتفات نحوكِ وأنت تقفين وراءه. ماذا يريدُ مؤلِّفكم المزعوم منِّي؟ تُجيبينهُ مُسـتَفَزَّة تُكرِّرين ما جاء في سـؤالِه. مؤلِّفُكم؟! يودُّ أن يلتفت إليكِ ولكنه لا يُريد لعينَيه المخضَّلتَين أن تُمعِنا بفضح مشاعره أكثر. يمكُـثُ يُحَـدِّقُ في الفـراغ الأزرق يتحرَّى إجابتـكِ. يلُفُّكِ الصَّمت. يُرسِل نظرةُ وراء امرأةٍ تحمِلُ رضيعًا تعبُرُ الشَّارع، رجل يمشي صُحبة كلبِه على الرَّصيف، وأطفالٍ يصيحون ببائع مُثلَّجاتٍ يلوحُ في البعيد. يُشـيرُ بذقنِـه نحـو ناسِ الشَّـارع. وأولئك؟ تُسـندين كفَّـك إلى كتِفِه. تهمسـين عند أُذُنِه. مؤلِّفُنا كلُّنا، كاتبنا الذي رأى كلَّ شـيء. سـوف يرفعُ رأسه إلى السَّقفِ يحدُجُني بنظرةٍ كارِهة أدري. يصيح بي. هاي أنت! ترتعشُ كفُّكِ على كتِفِه. يُتِمّ. أن ترى كلَّ شـيء لا يعني أنك تعرفُ أيَّ شـيء ولا يعني أنك قادِرٌ على فِعل شـيء! لا بأس قُطنة، هـذا المغفَّـل يقولُ أشـياءً حقيقيةً في بعـض الأحيان. تضغطين على كتِفِه وتهمسـين. عِرزال احذر! يسـتديرُ ينظرُ إلى وجهك. يرفعُ كفَّهُ اليُسـرى يلمـسُ وجهَـكِ ويمسـحُ بلـل وجنتيـك. ألسـتِ تقولين إنه أرسـلكِ ليعرِف ما ورائي؟ تهزِّين رأسـكِ مؤكدة. يسـألكِ. ما باله لا يعرِف؟! ادفعي كتِفه برفقٍ قوديه إلى السَّـرير. اجلِس عِرزال. سـوف ينصاعُ لكِ. اهمسي. أنت أسهل مما تصوَّرت. ما دُمتَ تقبل الفكرة!

يرفـعُ حاجِبَيـه يسـتوضِـح. يُفضي لِدخيلَتِه: هذه الفتاة تُجيد الابتسـام على نحوٍ مُحبَّب. لا تُفَوِّتي لحظة سكينَتِه. واصلي ما توقفتِ عنده. فكرةَ أن نكون كلُّنا؛ أنا وأنت عِرزال والحمامة والناس الذين يطوفون الشَّارع في الأسـفل، كُلُّنـا لا نعدو كوننا وَهـمًـا داخِل نصٍّ لا أحد يدري عنه إلا كاتبه. تسـتدركين. كاتبنا. يشـيحُ بوجهِه صوبَ النافِذة لا مهرب له من غزو حُجَجِكِ سواها. امسكي بذقنِه بطرفِ أصابِعكِ. أديري وجهَهُ إليكِ. سـوف يقعُ نظرهُ على صدرِكِ يأخُذُه إلى صحوِ سـماءٍ قرأها، تجُرُّه شـاماتُكِ الأربع إلى زواجِل أزرق تُحلِّقُ مُبتعِدةً أو عائِـدة، أو تأخـذه إلـى إخـوةٍ يفتقِدُهُم. خُـذي دفتر المذكِّرات من الطاولة القريبة واسـنِديه إلى فخذَيه ثم اجلسـي على رُكبَتَيكِ أرضًا. اطلبيـه أن يتصفَّـح. اقـرأ. يُجيبُكِ. لا رغبة لي بقراءة ما أحفظ. يومئ لـكِ رافِضًـا. كـرِّري. اقـرأ عِـرزال. يدفـعُ بالدَّفتر إليـكِ غير راغب. تُطبقين كفَّيكِ على كفَّيهِ تُبقين الدَّفترَ مفتوحًا على فخِذَيه. اقرأ أرجوك وحاول أن تتذكر، ما الذي أردتَ قوله في مذكِّراتك هذه حتى لو لم تكُـن كاتبهـا؛ الحمـام الزَّاجِل وبصيرة وأزرق وفيـروز وزينة ورحَّال وكل شـيء، اقرأ وسـاعدنا على الخلاص من مصير الدُّرج السُّـفلي، عِرزال! تذكَّر أرجوك واجعل لهذا النَّص الذي نعيشـه نهاية! سـوف تعتريه رعشةٌ يفشلُ في كبحِها. ينظرُ إلى عينيكِ يستمِدُّ ما يعينهُ على ضعفِه. ربِّتي على ساقَيه. أخبريه. نحن في برزخٍ بين فكرةٍ في رأسِه وتدوينِها بشـكلٍ منقوصٍ على الورق. سـوف يُمسِـكُ الدَّفترَ يتصفَّح أوراقه كيفما اتفق. يقرأ فقرةً. يقفِزُ إلى أخرى. يتجاوز صفحة. يُدرِكُ الأخيرة. يعود إلى الأولى، ثُمَّ المنتصف. أنا أحفظُ كلَّ هذا ولكنني

لا أعرفُ ما الذي يعنيه ولماذا. سوف يصرخ. أنا لا أتذكَّر شيئًا.. أنا لم أكتُب شيئًا.. لعلَّه هو.. هو الذي فعل! هو الذي يرى كُلَّ شيء ولا يعرف أيَّ شيء وغير قادرٍ على فعل شيء! سوف تنظرين إلى السَّقفِ نظرةً سريعةً مُرتبِكة. هذا صحيح، ولكن هل لكَ أن تهدأ عِرزال؟ هذا جيِّد، جيِّدٌ جِدًّا، دعنا نتَّفِق على وجوده أو لا. يرفعُ وجههُ إلى السَّقفِ الذي اتسعَ شرخُه واتَّخذَ شكلًا آخر؛ شكل ورقة شجر، عين أو رُبَّما فم، العينِ القديمةِ الناظِرة إلى بصيرة، الفمُ الصامِتُ أبدًا إلا عن قولٍ لا يفقهُهُ سواها. يهبِطُ نظرُ عِرزال إليكِ. يتراجعُ عن قولِه إنني أنا، سقفكم، وراء ما كُتب في الدَّفتر. هو لم يكتُب شيئًا، هو غير موجود أصلًا! انهضي قُطنة عن الأرض واجلسي إلى جوارِه على السَّرير. انظري إليه. يمشِّطُ ببصرِه سطورَ الدَّفتر المفتوح في حِجرِه. يتنهَّد مُستسلِمًا. أنا لا أتذكَّر. تومئين له مُتفهِّمة. لا تدَّخري وقتًا لإقناعِه. هل تتذكَّر متى وكيف تنام كلَّ ليلة؟ سوف ينظرُ إلى وسادتِه يُربِكُه سؤالكِ. عِرزال لا يريد أن يُجيب نفيًا يؤكدُ مزعمَكِ. أنا أتذكَّر متى وكيف أصحو كلَّ صباح. تضحكين بيأسٍ إزاء إجابة المتذاكي. أنت تتهرَّب مِن إجابةٍ لستُ أحتاجُ إلى سماعِها! أنت لا تتذكَّر نفسكَ كيف أو متى تذهب إلى السَّرير كلَّ ليلة، لأنه لم يكتُبكَ تنام، بل إنك لم ترَ الغروبَ في حياتِك ذات الأيام الخمسة عدا مرةٍ واحِدةٍ يومَ أطفأت النُّور كي لا تُفزِعَ فيروز! كوني صارِمةً في حديثك قُطنة. واثقة. لكِ قُدرةٌ خارقة على إخراسِه. تضطربُ عيناه مُعترِفًا في نفسِه: أنا بالفعل لا أتذكَّرُني أندسُّ في سريري ليلًا! يدفعُكِ صمتُه لأن تستطردي. أنت لا تتذكَّر إلا بضعة أيامٍ مضت كلَّها يومَ أمس، لأنك

لم تكن شيئًا قبل ذلك. يُمسكُ بدفتر المذكّرات يلوذُ بِه. يُلوِّح بالدَّفترِ أمام وجهكِ. ولكنني موجود هُنا، كنتُ صغيرًا، كل شيء مكتوبٌ في هذه الأوراق! أسكتيه بسؤالكِ قُطنة. منذ متى؟ سوف يتلكأ مُحاوِلًا أن يُجيبَ وِفقَ ما يرغب ولكنهُ لن يقوى على مُجاراة رغبتِه. يُجيبُكِ بما يُشبه اعترافًا. أمس. تُطرقين كأنما يُتعِبُكِ النظرُ إلى وجهِه. افضِ له بكلِّ شيء لحظةَ ضعفِه. أنتَ لم تكُن شيئًا قبل أمس عِرزال! ِافهَم! تشيأتَ في هذا النصِّ الذي كُتِبَ في اثنتي عشرة ساعة؛ نِصفُها أمس ونصفُها الآخر اليوم. سوف يُطبِقُ فكَّيه كي لا يُجيبُكِ زاعِقًا. يقول ضاغِطًا حروفهُ. غبية! أنا وأنتِ وفيروز وأزرق وبصيرة! ثُمَّ يعتصرُ ذاكِرتهُ يستحضرُ الأشياء والكائنات. أفعى الدَّار وحمامُها وزينة ورحَّال والبيت العربي القديم وصحراء الجنوب والبحر وكلُّ ما يجري وراء هذه النافذة كُتِبَ في اثنتي عشرة ساعة! هه.. هذا غير حقيقي! تنهضين تُديرين له ظهركِ. لا داعي لأن أُذكِّرك؛ أنت غير الحقيقي في هذا النَّص اللقيط! كنتَ سهلًا قبل قليل، صِرتَ تُعقِّد الأمور عِرزال! أنت مجرَّد شخصية ورقية لا تعدو كونها وهمًا في رأس مؤلِّفنا، كُفَّ عن عنادِكَ عِرزال! سوف يُجيبُكِ. أدري ولكن! لا! هو مجرَّد وهمٍ في رؤوسِنا! ارفعي صوتكِ قُطنة. أجيبيه. هو من أوجَدَنا! يرفعُ صوتهُ. نحن من أوجدَه! تستديرين تنظرين إليه مُبقية على صمتكِ تترقَّبينه. هاتي دليلا واحِدًا على وجودِه! سوف يُشيرُ إلى رأسِه مُردِفًا. خارجَ هذا الرأس! حاذِري أن يُضعِفَكِ سؤاله الخبيث. أشيري بسبَّابتكِ نحو صدرِه. سوف أفعل إن جئتني بدليلٍ على أن ما هو مدوَّنٌ في مُذكِّراتك نتيجة أحداثٍ مررتَ بها حقًّا!

اقتربـي صوبَـه أكثر. عِرزال! ليـس بالضرورة أن تكون ذكرياتنا نتيجةً لحدثٍ كان! لاحظي ضعفه قُطنة. سوف يصمتُ صاغِرًا. يصرخُ في دخيلتِـه. نحـن نـدورُ في دائـرة مُفرغة. حديثنا يبـدأ من حيث ينتهي! كأنما تنصتين إلى ما يجولُ في خاطرِه. تجيبينه. اطمئِن، لم يحِن أوان التِّيه في الدَّائرة المفرغة بعد! ولكننا نمضي إلى هذا المصير حتمًا إن أصـررتَ على عِنادك! تيهُكَ، أو بالأحرى تيهُنا جميعًا سـوف يكون تيهًا أبديًا إذا ما لفَّنا الظلامُ في الدُّرج السُّفلي! سوف يفتعِلُ ضحكةً يتوسَّل بها تبديد ارتباكه. لا وجود لذلك الدُّرج! يمتقعُ وجهُكِ. أنت تنكر! يُجيبُكِ مُنتقيًا كلماته بحذر. الإنكار وجهٌ آخر للتسليم، إنكارك وجود الشيء تسليمٌ بعدمِ وجودِه! أفلتي ضحكةً ولا تُشعريه بغيظِكِ. أنتَ تهذي! أشـيري لهُ نحو المقعد. اجلس عِرزال. تجلسـين أمامهُ على السَّرير ثانيةً وقد بدا أن صبركِ يوشك على النفاد. لا تيأسي. أنا معـكِ قُطنـة، أنـا قريب. أخبريه. أنـتَ أمام خيارين لا ثالِثَ لهُما؛ إما أن تقفِزَ مـن نافذتـكَ هـذه لتجعلنـا نُكمِـل النَّص من بعـدك، أو أن تُخبرنـي بِمُـرادِكَ مـن وراء تمديد أجلك ومُخالفة قدرك، افعل شـيئًا لعلَّنا نمضي نحو صفحةٍ جديدة. لن يُحيرَ جوابًا، فَــ عِرزال لا يعرفُ سـببًا لإصرارِه على عدم الموتِ انتحارًا أو بغير انتحار عدا أنهُ يُريد أن يبقـى علـى قيـدِ حيـاةٍ لا يعرِفُ لها معنى! يُريد أن يُدرِكَ فهمًا لكُلِّ أسـئلتِه. مسـكينٌ عِـرزال، لِـزامٌ عليـهِ أن يهـرُب من فرضيـةِ الكاتب والمكتـوب هـذه وإن كان إيمانـهُ بهـا غافيًا في داخلِه. سـوفَ يقول. قلـتِ لـي إن اسـمكِ قطنـة! تومئين موافِقة. يسـتطرد. كان لديَّ معزةٌ بربرية بيضاء تحمِلُ الاسمَ ذاته، اعتدتُ في طفولتي أن. قاطِعيه قُطنة.

انسفي إيمانه بماضيه. طفولتكَ المزعومة في دفتركَ عِرزال! نحن الآن خارج النصّ في ساعةِ تأمُّل مؤلِّفنا الذي منحنا فرصة أن نُشاركه الكتابة! يصيحُ بكِ بكلِّ ما أوتيَ من غضب. يا لِسخائِه ويا لِغباء حجَّتك! وإن افترضتُ إيماني بوجودِه يا. لا تُمهليه يُكمِل. أنت مؤمِنٌ بوجودِه ولكنك. سوف يُقاطعكِ. أنتِ مُغفَّلة تُشبهين بصيرة! سوف تضحكين. بصيرة من؟ يفترُّ عِرزال أمام فائضِ ثقتِكِ. يتلكأُ يُجيبُ بغيرِ يقين. بصيرة العجوز السَّاكِنةِ أسفل السُّلَّم. تُجيبينه بما يُشبِه عَتَبًا. أنت تؤمنُ بوجودِها إذن! ينتفضُ كأنما يتبرأُ مِن تُهمة. لا! تهزِّين رأسكِ. صرتَ مثل أزرق. يُجيبُكِ. أزرق لا يكذب! تبتسمين تفتعلين هدوءًا. ولا أنا. ترفعين وجهك إلى السَّقف تنظرين إليَّ بأسف. تُطرقين قبل أن تستديري ماضية إلى خارج غرفتِه. حسنٌ! أعودُ لِمَن أرسلني خائبة أخبرهُ بفشلِ مُهمَّتي! يصيحُ بكِ. صبرًا! تلتفتين إليه ودلالات الرضا على وجهكِ. يسألُكِ وقد تملَّكتهُ حاجتهُ لبقائكِ. إن قلتُ لكِ إني لا أملك حجَّة لوجودِه أو عدمه، ولكن لا تطيبُ لي تلك الحياة التي ينبغي لي عيشُها وِفق شروطِ من تدَّعون بأنه يكتبُني! تهمسين مُتحرِّجة. لا تكُن أنانيًّا عِرزال! ينتفضُ يُجيبُكِ مُتسائلًا. وهل الإيثار أن أكون قربانًا لراحةِ بالِه واستمراركم من دوني في النَّص الذي تزعمين؟! تهزِّين رأسَكِ بحزن. أو أنك تُبرِّر لي سبب إصرارك على البقاء. يُجيبُكِ بصوتٍ واثقٍ كأنما أزرق يندسُّ في أحشائِه يُرسِلُ صوتَه عبر حنجرةِ عِرزال. اسمعي قُطنة! أنا أبحثُ عن معنى! يرفعُ رأسه ينظر إلى السَّقف. يستطرد. معنى لِكلِّ ما يجري هُنا. على افتراض أن ما تقولينه بشأن ذلك الروائي صحيح، ماذا

تعرفيـن عنهـم؟ تُكرِّرين آخر قوله مسـتفهمة. عنهم؟ يوضِحُ عِرزال. الروائيـون قُطنـة. تُجيبين صاغِرة. أنا لا أعرف، هُم العارفون! صوت أزرق فـي داخـلِ عِـرزال يضحك. تتداركين. لا شـأن لـي بالروائيين الآخرين. أنا هُنا رسـولة مِمَّن كتبني؛ كاتبنا الذي وراء السَّـقف مانِح الحيـاة الـذي يـرى كُلَّ شـيء. يومئ لكِ آسـفًا. حسـنٌ، لو هو يراني قُطنة، هو لا يعرفني، لأنه يظن أنه أوجدني من عدم، أنا سأعرفهُ لأنه أوجدني على شـاكلته! هل تفهمين؟! تُشـيرين برأسـكِ نافية. يواصل الوغدُ إفضاءهُ. هو لا يدري إنني هو. أنا أدري. تلتصقين بِه ترتعشين. إياكِ أن يُقنِعَكِ بجنونِ أفكارِه. نبِّهيه. أنتَ تقولُ أشياء غريبة عِرزال! سـوف يُحيـطُ جسـدكِ بِذِراعَيـه يهمِـسُ بأُذُنِـكِ. الروائيـون مرضى، يُنفِّسون عن معاناتهم ويستزيدون بالكتابة تعويضًا لنقصٍ في نفوسهم! يُزيـحُ ذراعيـه عـن جسـدكِ. يُداهِمُـكِ ضعفٌ قُطنـة. لا بأس. ولكن احذري! تقولين له. هذا كثيرٌ عِرزال! يسـألُكِ. كثيرٌ بحقِّه؟ تُمسـكين بقِمَّةِ رأسـك تُجيبين. لا. هذا كثيرٌ بحقِّ هذا الرأس! تنفضين رأسـكِ مُنزعِجة. أنتَ تهذي مُجدَّدًا. ادفعيه. حاولي الخروج. يُمسِكُ الحقيرُ بذراعِكِ الملسـاء. أي سُـلطةٍ تمنحُ كاتبكُم المزعوم الحقَّ بأن يكتبُنا وفق ما يريد؟ تُفلتين زفرةً طويلةً. تسـتديرين. تتقابلان وجهًا لوجه. أخيـرًا! كنـتَ للتـوِّ تفتعل عدم إيمانِـك بدورِه، ثُمَّ صرتَ تؤمِن كارِهًا يدفعك سـخطك! تمُطِّين شَـفَتَيكِ. قطعنا شوطًا ليس بالهيِّن. تنظرين إليـه عاقِـدة حاجِبَيـكِ. مـا بالك تُحملِقُ بي هكـذا؟ هو لا يزال ينتظرُ إجابة. يتجاوز قولكِ يُكرِّر. أي سُـلطةٍ تمنحه أن يكتبُنا وِفقَ مِزاجِه؟ تتنهَّديـن قبـل أن تُفضـي صارِخـة. القلـم! كأنمـا لطمتِـهِ على وجهه

بكلمتِك وقتَ أجبتِ. سوف يستقيمُ الغبيُّ واقِفًا ساهِمًا يذرُعُ غرفتَهُ جيئةً وذهابًا يُردِّد. القلم. القلم. القلم. يقلِبُ المكان يبحثُ عنه في درجِ الطاولة الصَّغيرة إلى جوارِ السَّرير. في خزانةِ الممر. على طاولة القهوة. لا شي! أكِّدي له قُطنة. لن تجِدَهُ عِرزال! سوفَ تبدو الشفقة في ملامِحِكِ أدري. يُربكُهُ قولكِ. يتحشرجُ صوتُكِ. أنتَ لا تملكُ قلمًا واحِدًا في شُقّتِك! سوف يُطبِقُ قبضته على دفتر مُذكّراتِه يرفعُهُ أمامَ وجهِكِ يُبرهن. تومئين له بحزن. لا داعي لأن نُعيد الحديث عِرزال. أنت لم تكتُب ماضيك قط. هو من فعل. سوف يرفعُ رأسَهُ إلى السَّقفِ يصرُخ. أريدُ قلمًا! تقتربين مِنهُ تهمِسين. اخفِض صوتَك! تَدُسّين أصابِعَكِ في صدركِ. تتّسِع عيناهُ يسأل. ما زِلتِ تحتفظين بالدَّيْرَم في صدرِك؟! تعقدين حاجِبَيكِ استفهامًا. يُردِفُ المسكين شارِحًا. تِلك القِطعة النسيجيّة التي تُشبه القرفة. لا تُعيري قوله اهتمامًا قُطنة. اخرجي القَلَمَ من جيبِ صدرك وناوليه. سوفَ يسألكِ. مِن أين لكِ؟ تُسكِتينه. لا تسأل! مِثلُك أنا لا أدري، في برزخِنا هذا ساعةَ تأمُّله لا قوانين لشيء، هو مَن أوجدَ القلمَ في هذه اللحظة لعلَّكَ تكتبُ في دفترك ما فاته أن يكتبه! السَّعادةُ التي سوفَ تغمره على نحوٍ مُفاجئٍ تدفعُهُ لأن يُحيطُكِ بذِراعَيه يُعانقُكِ. فليؤمن هُوَ بأني سوفَ أكتب غَدي إذا ما آمنتُ أنا بأنه كتبَ أمسي. تنتفضين بين يدَيه. ماذا تفعل عِرزال؟! يلتقِمُ شفتَيكِ كأنما يروي عطشًا لازمَهُ مُنذ ما قبل أمس. وأنتِ. أنتِ يا قُطنة تدفعين صدرهُ بكفَّيكِ قبل أن تستقري هادئة. حرارةُ أنفاسُكِ تلفحُ وجههُ مِثلَ سَمومِ صُيوف البيت القديم. يُقَرِّبُ وجهَهُ إلى سماءِ صدركِ يلثُمُ زواجل أزرق ومذاقُ

ريقِكِ العذب في شفتَيه. يُفلِتُكِ الحقيرُ لاهِثًا. تُسقطين نفسَكِ جالسةً على طرفِ السَّرير. عيناكِ مفتوحتان على اتساعِهما تحملِقين في الكهل. ما جئتُ لهذا الشيء عِرزال! يستجمعُ كلماته خلال أنفاسه المتسارعة. لعلَّ ما حدث هو الشيء الوحيد الذي أقدمتُ عليه بإرادتي مُدرِكًا. تومئين عاقِدةً حاجِبَيكِ تستوضحينه. يُجيبكِ السَّافِل. تقولين إنه يمنحني فرصة أن أفعل؟ أن أقول؟ أن أُعينه على إنهاء هذا النَّص اللقيط الذي وُلد بغير ما فكرة؟! تهزِّين رأسكِ موافِقةً تؤكِّدين. يُلوِّحُ لكِ بالقلم. سوف أكتبُ نصًّا يُخالِف نصَّه اللقيط، نصًّا نسبيًا، أنسُبُه إلى فكرةٍ لستِ تؤمنين بها. تُضَيِّقين عَينَيكِ تتحرَّين إيضاحًا. إنها ثورة الشخصيات على مؤلفيها المفترضين! يجلِسُ إلى جوارِكِ على السَّرير. يُطبِقُ كفَّهُ على كفِّكِ المرتعِشة. من فينا يكتبُ الآخر ويُفنيه؟! تطفرُ دمعة من عينكِ وأنتِ تنظرين إليه صامتة. لا تُصدِّقيه قُطنة. دعيه يهذي لعلنا نُدرِكُ نهايةً لهذا النَّص. يُقرِّب وجههُ إلى وجهِكِ يدفعُهُ سطرٌ قرأهُ ذاتَ صبحٍ من صباحاتِه الخمسةِ في أوراق دفترِه. يلعقُ دمعتَكِ برأسِ لسانه. أنتِ مثل بئرنا المجنونةِ في وسط البهو، تمنحين ريقًا عذبًا أو دمعًا مالِحًا بحسبِ مِزاجُكِ. تسري رعشةٌ في شفتَيكِ. أنا لا أفهمُ شيئًا. يُجيبُكِ. سوف تفهمين. تنهضين تهُمِّين بالانصراف. أخشى أن تنتهي ساعة تأمُّله. يُطبق كفَّهُ على ذراعِكِ. لا قوانين للزمنِ في هذه السَّاعة شأن الزَّمن في أوراقٍ يكتبُها. أوَ لستِ تقولين إن أحداث الأيام الخمسة التي مرَّت بي وكل ذاكرتي القديمة قد جرَت في اثنتي عشرة ساعة؟! تهُزِّين رأسكِ توافِقينه. يُلوِّحُ بالقلمِ أمام وجهِكِ. سوف أُخلِّصُه مِن مُعاناتِه وأكتبُ ما عجزَ هو عن كتابته!

يُطوِّقُكِ الوغدُ بذِراعَيه. أمهِليني اثنتي عشرة ساعة! يتشمَّمُ شعركِ. يلثُمُ عُنُقَكِ. يُطبِقُ قبضتَهُ على ياقةِ ثوبِكِ الواسِعة. ادفعيه بعيدًا قُطنة. سوف يقول. أنا لا أنوي فعلَ شيء. انهريه. انظري إلى السَّقفِ وتذكَّري..

خُذي مِنهُ كلَّ شيء ولا تمنحيه أيَّ شيء!

* * *

عِرزال

«ادفعي الباب!»

صحتُ بالفتاةِ الواقِفةِ وراءَ البابِ توشِكُ أن تضغطَ زِرَّ الجرس. تأخرَّت قبلَ أن تدفع البابَ على مهل. أطلَّت برأسِها زائغةَ البصرِ تُحملِق فيَّ وأنا وراء مكتبي جالِسٌ أُسنِدُ ساقًا إلى ساق، وأُديرُ قلمًا بين أصابِعي. عُذرًا! يبدو أنني في الـــ. قاطعتُها باسِمًا. لستِ في المكانِ الخطأ قُطنة. قطَّبَت حاجِبَيها تستغربُ معرِفَتي اسمِها وأنا الذي لا أبدو على الصُّورةِ التي تعرف. راحت تتلفَّت كأنها تتعرَّف المكان، ولكن جِدَّة المكان قد ألجمتها. أشرتُ لها نحوَ مقعدٍ أمامَ مكتبي. تفضلي. نظرت إلى السَّقفِ مُتلكِّئةً كأنما تستنجِدُ بمن يُفسِّرُ لها طارئًا غَيَّرَ حدثًا كان قد رُسِمَ بعناية. تفضلي قُطنة! كرَّرتُ. جرَّت خُطاها إلى المقعدِ أمامي. أنا عِرزال، الرَّجُل الذي جئتِ مِن أجلِ إقناعِه بلُعبةٍ أنتِ نفسكِ لا تعرفين قوانينها! بهتت الفتاة. ضيَّقت عينيها تتفرَّسُ ملامحي. أمسكتُ بخصلةٍ من شعري. أشيَب، ولكن الشَّيب أفضل من الصَّلعِ كما أظن! لم تبالِ. هبطت عيناها إلى كفِّي اليُمنى تبحثُ عن آثارِ حروق. باعدتُ بين أصابعي أُحركها. كفٌّ سليمة! انبرَت تواصل تفحُّص المكان. كان ينبغي أن تكونَ على دكَّةِ نافِذتكَ ساعةَ دخولي! زفرتُ أُجيبُها. أحدُهُم سوفَ يكون.

دنوتُ بمقعَدي إلى مكتبي. ربَّتُّ على حِزمة أوراقٍ على سطحِه. هُنا قِصَّةُ مؤلِّفٍ فشلَ في الانتحار، هربَ مِن ماضيه بكتابةِ روايةٍ ظِل لحياتِه البائسة. رفعت رأسها إلى السَّقفِ ثانية. طرقتُ سطحَ مكتبي بالقلمِ أُنبِّهُها. أنا السَّقفُ قُطنة، أنا مؤلِّفٌ أكتبُ قِصَّة مؤلِّفٍ، وهذه ساعةُ تأمُّلي، لا تهدري وقتك! أطرقت تحجِبُ وجهها بكفَّيها. هو شأنُكِ إن ارتضَيتِ أن تكوني شخصيةً ورقيةً كتبها أحدَهُم. أنا لا يُرضيني هذا الهُراء. أزاحت كفَّيها عن وجهِها المصفرِّ كأنما فرَّت مِنه الدِّماء. أشرتُ بِذَقني نحو الأوراقِ على سطحِ مكتبي. مَن ارتضَيته مؤلِّفًا سوف تتعرَّفينه ها هُنا! دعكِ من أحداث الصَّباحات الخمسة التي تعرفين، تجاوزيها إن أردتِ، هي صباحاته هو. اقرئي المذكِّرات التي أخفاها وحسب. ضربتُ الهواءَ أمامَ وجهي ضاحِكًا إزاء صدمةٍ شلَّت ملامِحها. أعرِفُ أن مجيئك مُحمَّلٌ بكلامٍ كثير. لا داعي لِكُلِّ ما أُرسِلتِ لقَولِه فأنا أعرِفُه. مطَّت شَفَتَيها وهي ترفعُ كتِفَيها وتهزُّ رأسها وقد أخرستها الدَّهشة. أردفتُ. أنا اخترتُ أن أكون أنا وِفقَ ما أروم. كتبتُ نصًّا يخالِفُ النَّص اللقيط الذي تعرفين. حملتُ الأوراقَ بينَ يديَّ أُقرِّبُها إليها. واصلتُ. هُنا نصٌّ نسيب، أنسُبُه إلى فِكرةٍ واضحة المعالم. انسِ أمرَ المؤلِّفِ، بن أزرق، الحائرِ في نصِّه في العهدِ القديم، المصرِّ على أمسِهِ لأن حياته خالية من الأحداث بعد حادثة المرسى العظيمة قبل عشرين عامًا. قطَّبَت حاجبَيها. حادثة المرسى ؟! أومأتُ مؤكِّدًا. هذا ما سوف تتعرَّفين إليه في هذه الأوراق، قِصَّةً جديدة في عهدٍ جديد. يحدثُ أن يكون المؤلِّفُ شخصيةً في رواية كتبها مؤلِّفٌ آخر. واصلتُ إزاء استغرابها. أنا مَن كتبهُ على هذا النحو؛ منوال بِن

أزرق، يفتتحُ الرواية بمشهدِ حيرته في مكتبِه فجرًا، يومَ تعدَّى خمسينه بساعات، يشكو لزوجَته مأزقه الكِتابي وتمرُّدِ إحدى شخصياتِه، هه! فلنقُل إنه أنا. عقدَت قُطنة حاجبيها تستفهم. استطردتُ. أنا عِرزال، ليس لي أب اسمه أزرق، وتجاوزتُ الخمسين مُنذ سنواتٍ بالمناسبة. لم أُمهِلها تنطِق. ذلك الموتور منوال، المنسوب لأزرق، الذي كتبتهُ مؤلِّفًا كاذِبًا حتى مُقدِّمِته، يكتبُ فيها عن نفسِه ما يشتهيه، لم يجرؤ على الاعتراف بأنه انفصلَ عن منيرة، أو بالأحرى هي من قامَت بتسريحِه، منذ عشرين سنة! استدعاها في مُقدِّمِةِ نصِّه زورًا مُتخايلاً أمام قراءٍ محتملين، يُحصي أعمالًا أدبيةً وسينمائيةً ومعارض تشكيلية لم يُقدِم على إنجازِها قط! يدي لا تزال ممدودةٌ إلى قُطنة بالأوراق التي كتبتُ. أنا كتبتهُ على هذا النحو، مؤلِّفٌ بالكاد بلغَ الخمسين من عمره، عاشَ منها عشرين عامًا خالية من أيِّ أحداث، حتى فاجأته ذات يومٍ حمامةٌ! الحمامةُ التي حطَّت على دكَّة نافذِته، كما لو أنها على خشبِةِ مسرح، تؤدِّي دورًا قام به قبل سنوات طوال. رأى ذاته من خلالِها، ودفعتهُ للانصرافِ عن كُلِّ شيءٍ ليكتُب نصًّا توسَّل به مهربًا، ولكن النَّص قاده إلى نفسِه مِن دون أن يعلم رغم زورِ مُقدِّمته. هزَّت قُطنة رأسها وقد احمرَّت عيناها. أنا لا أفهمُ شيئًا.. عِرزال ومنوال! تلقَّفَت الأوراقَ مِن بين يديّ. مَن.. مَن فينا الكاتِبُ ومن فينا المكتوب؟! استقمتُ واقِفًا. استدرتُ أخرجُ مِن وراءِ مكتبي أتقدَّم نحوها. أنا الكاتبُ الذي خطَّ قِصَّة كاتِبٍ عاجِز عن إتمام نصِّه، منوال الجبان الذي أخفق في محاولة الانتحار، ثُمَّ شرع بكتابة فشلِه، يتنكَّر لكُلِّ ما يكرهه في صفاتِه ويُلصِقه بشخصية يكتبها، لكنني أنا..

أنا الذي رأيتُ كُلَّ شيءٍ وأعرِفُ كُلَّ شيء. جلستُ على مقعدٍ أمامَها محنيَّ الظهرِ أُسنِدُ مِرفقَيَّ إلى رُكبَتيّ. ضمَّت الأوراقَ إلى صدرِها واستقامت واقِفة شاحِبة. أيمكنني الانصراف؟ هززتُ رأسي أمنحُها الإذن. أدارت لي ظهرها تسيرُ شارِدة الذِّهنِ. التفتت تنظرُ إليَّ مِن وراءِ كَتِفِها عند عتبةِ الباب. وأنا؟ من أكون؟ أجبتُها مِن دون أن أنظر إليها. اقرئي الأوراق التي في يدَيكِ، يُرضيكِ كونَكِ ما جاء فيها؟ أو فاكتُبي ما تشائين. مشيتُ نحوها. مددتُ لها كفِّي بالقلمِ. تردَّدتْ قبل أن تتناولهُ بكفٍّ مُرتعشة وهي تقول: في الحقيقةِ.. قاطعتُها واضِعًا سبَّابتي على شفتَيها الذَّاكنتين. الحقيقة أنه لا توجد حقيقة. أطبقتُ قبضتي على قبضتِها الممسكةِ بالقلم. هزَّت رأسها مُتفهِّمة. دسَّت القلمَ بين نهديها. تلفَّتت في المكان ثانيةً قبل أن تسأل. ومن يضمن لي أننا لسنا في ساعةِ تأمُّله حتى الآن؟ من يضمن أن ما يجري في هذه اللحظة ليس فكرةً داخل رأسِه في طريقِها للتدوين؟ ضممتُ ساعِدَي إلى صدري أُجيبُها. لا أحد!

تحسَّستْ القلمَ المخفي في صدرِها. سألَت. ماذا لو فشلتُ بكتابة ما أُريد؟ نظرتُ إلى السَّقفِ الخالي من الشُّروخ. إن كان يُرضيكِ دورُ الرَّسولةِ؛ اذهبي إلى شُقَّة منوال، دُقِّي جرس بابه، ادخلي وأخبريه بأنه مجرد شخصية مؤلِّفٍ ورقيَّةٍ كتبها مؤلِّفٌ آخر. حاولي أن تقنعيه لأن يُنهي هذا المخطوط انتحارًا، تجنُّبًا لمصير الدُّرج السُّفلي.

أطرقت تمضي في ظلامِ الممرِّ مِن دونِ أن ترفعَ رأسها إلى السَّقف. لم تلتفت إليَّ وقتَ قالت. اذهب أنت واطرق بابَهُ ما دُمت المؤلِّف، وما دُمنا في ساعةِ تأمُّلكَ كما تزعُم.

غابـت فـي ظـلام الممـر. صحتُ بهـا. خُذي مِنهُ كلَّ شـيء ولا تمنحيه أيَّ شيء!

* * *

العَهْدُ الجديد

صباحات منوال بِن أزرق

كَلِمَة

.. كمَثَلِ الحمامةِ التي يُؤخذُ فرخاها فيُذبحان، وترى ذلك في وكرِها، ولا يمنعُها مِن الإقامةِ في مكانِها حتى تؤخَذ هي فتُذبح.

عبدالله ابن المقفَّع

مشروع رواية

«نصٌ نسيب»



صباحٌ أوَّل

«.. ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

.. (*) على هذا النحو يستفيقُ منوال بِن أزرق كلَّ يومٍ منذُ أمس.
.. يفتحُ عينيه يتحاشى النظرَ إلى السَّقف. يلتفتُ صوبَ النافِذة.
الحمامةُ قريبة من هُنا، أو أنها سوف تكون..
.. هل كانت الحمامة هُنا يوم سقطت الستارة؟ ربما، ولكن متى؟
.. وفي اليوم ذاته، أمس، هاتَفَ طليقته فورَ استيقاظِه: أشتاقُ للصَّغيرَين! تَقطع المكالمةَ فور تعَرُّفِها صوتِه: اركُض يا جبان!

«انتظارُ ما يعود وما لا يعود»

كنتُ في الثلاثين من عُمري، قبل عشرين سنةٍ من كتابة هذه المذكِّرات. أطوي ثوبي حول خاصرتي، أُقعي على رصيفِ المرسى الصَّخري. أتلفَّتُ بين المراكِب الخشبيةِ المتروكةِ بغيرِ عناية، تتمايل راسيةً طافيةً فوق موج المدِّ الهادئ. رائحةُ المرسى رائحتي منذُ صرتُ أمضي فيه نهاراتي الطويلة أنتظر عودةً مُحتملة وأخرى أمنحُها احتمالاتٍ مستحيلة. الجوُّ مُشبَّعٌ برطوبةِ الأخشابِ والحِبال وزَفَرِ أسماكٍ صغيرةٍ وكائناتٍ بحريةٍ عالقةٍ في شِباكِ صيدٍ مُهملة؛ خليط روائح يجرُّ قِططَ

(*) لم ألحظ تغييرًا في أحداث الصباحات الخمسة إلا اسم الشخصية المحورية، فارتأيت الاكتفاء بإعادة قراءة بضعة سطور. (قطنة).

السَّاحل ونوارِسه إلى المكان. أصوات ألِفتُها تمنحُ المرسى حياةً كأنما تُحدِّثُني وتُبدِّدُ شعوري المرير بالوحدة؛ طقطقة أخشابِ المراكِب، وهدير الموجِ المُتغلغِل في فراغاتِ صخورِ المرسى يدفعُ أبا العُرَّيسِ للخروجِ من مَكمَنِه مُبتلًّا ممتعضًا ينفضُ جسده، ومُواء القِطط ونداءات النوارِس حول وليمة شِباك الصَّيدِ المهملة. أغيبُ مع لهفةِ عقلي واضطرابِه قبل الغروب في حين زوارق رجال خفر السَّواحل تُمشِّط المكان. أُفكِّر في الوقتِ أحسبُه. يُداهمني قلق. أترقَّبُ عودةَ ستَّةٍ من أفراد عائلتي غيَّبهُم الأزرق البغيض. أُطمئِنُ نفسي أخالِفُ عقلي إذا ما طالَ غيابهُم. كلُّ مَن عاشَ في الدَّارِ يصيرُ مِن أهلها؛ حمامُ الدَّارِ لا يغيب، وأفعى الدَّارِ لا تخون. هذا ما يقوله هاتِفٌ في داخلي ولَّدَهُ الفقد قبل سنواتٍ طوال، إيمانٌ أكسبتني إياهُ رغبتي في الحِفاظ على مَن أُحِب مُذ كنتُ صغيرًا. إيماني الذي لا أفهمُه. إيمانٌ أشكُّ في وجودِه لولا ما يُشبِهُ الصَّوتَ الذي يجيءُ من داخلي وقتَ ضعفي، وقتَ أحتاجُ إليه. يجيءُ مُطمئِنًا إلى وجودِه إذا ما هدَّني الخوف. يجيءُ مِن تِلقاء نفسِه ويغيبُ في صمتِه إن أنا حاولتُ استنطاقه غصبًا. طال انتظاري مُقعِيًا على رصيفِ المرسى. يناوشُني شكٌّ بعودة غائب، وإيمانٌ بعودةِ غائب. غائبٌ لم يُسمِّ أجلَ عودتِه، وغائبٌ موعدُ أوبتِه اليوم من أجلِ غدٍ يوافق الذكرى الرابِعة والعشرين لوفاة أُمِّي.

منوال

.. يُغمِضُ منوال عينيه على وجعِه، يفتحهُما حمراوان لامِعتان على شقوقِ السَّقف متنهِّدًا. لو أنك تنطق! يهزُّ رأسَه محدِّقًا في دفترِ

مُذكِّراتِه على الطاولةِ الصَّغيرةِ قُربَ السَّرير.

«صوتُ ما ليسَ لهُ صوت»

كنتُ في السَّادِسة يومَ هاجَرَ والدي بصحبةِ إخوتي الأربعة الكِبار مُخلِّفًا زوجةً وولدًا في البيتِ القديم. هجرةٌ بلا سبب، أو ربما يعرف الكُلُّ أسبابها إلا أنا.

لا مؤنِسَ لوحدتي مع أُمِّي الواجِمة، في بيتٍ صامت، إلا كائنات حوشِ الغنم، في مكاني الأثير. أتذكَّر حينما رأيتُ الخادِمة فايقة هُناك، داهمني فزعي مِن تِلك الغريبة التي ظهرت في دارِنا على حين غُرَّة، يعرفُها الكُلُّ ولا أعرفُها، أعادها والدي مع ابنتِها الصبيَّة الحسناء لتمكُثا معنا قبلَ سفرِه بشهور، وليعيشَ هو مع زوجةٍ جديدةٍ في بيتٍ جديدٍ على تلٍّ في جزيرةٍ ليست بعيدة؛ بيتٌ واسعٌ مُقابِل البحرِ على حدِّ وصفِ إخوتي. تركني، لصِغَرِ سِنِّي وحُسنِ حظي، عند أُمِّي في البيت القديم. أنا، إلى هذا اليوم، لا أدري سببًا لرحيل والدي على هذا النحو. إذعان إخوتي يشي بحجَّة يملكها ولا يُصرِّح بها. يرون أنه دائمًا على صواب مهما بدا قاسيًا في كثير من تصرفاته. أُمِّي التي أسمت إخوتي حمامَ الدَّارِ أمضت أيامها تتحرَّى عودتهم. «يعود المولاف»، كانت تقول. والمولاف هو الطائر، أيُّ طائرٍ يألف المكان، يؤوب إليه مهما ابتعد. طالَ غيابُ إخوتي عن بيتنا وكأن الجزيرة لا تبعدُ عن المدينةِ بضعة أميال. كنتُ مِثلها أشتاقُ إخوتي الكبار. ظنَّ والدي أنه، بإحضار فايقة وابنتها قُطنة التي تكبرني بعشرِ سنوات، قد قام بواجِبِه تجاه زوجةٍ وابنٍ ينوي هجرهُما ولا أحد لهُما في المدينة.

فايقة التي كانت مِلك جدِّي، ثُمَّ ورثها والدي، مكثت في هذا البيت سنواتٍ طويلة قبل أن تُطرد هي وكُلُّ العبيد لسببٍ أجهله. أتذكَّر فيما يُشبه الحلم، حينما كنت صغيرًا جدًّا، بيتُنا مليء بأولئك الصَّامتين، في حوش الغنم أوالبهو أو السَّطح. لم يُجبني أحدٌ لماذا طردهم والدي. بحث عن فايقة واشتراها بعد سنواتِ الطَّرد مع ابنتها. بدَت وحشية غريبة بالنسبة لي، أليفةً مألوفةً بالنسبة لأُمي. أعادها والدي قُبيلَ رحيلِه مثل أُختٍ منسية تؤنِس أُمِّي المسكينة وتُبدِّدُ وحدتها. كنتُ أخافُ فايقة وهي الغريبة التي لا تُشبِهُنا. بهقاء شرماء، نحيلة فائقة الطولِ منحَت الحِنَّاءُ شعرها الأشيَب حُمرةً ناريَّةً كريهة. أسنانها الأمامية مفقودة تكشفُ عن لِسانها بسبب شيءٍ يُشبِهُ الجُرحَ القديمَ على أرنبةِ أنفِها، يُباعِدُ بينَ مِنخَريها نزولًا إلى الشَّفَتَين، يفلِقهُما وقد جعلَ مِن إطباقِهِما أمرًا مُستحيلًا. ذلك العَيب الخلقي في منتصف وجهِها يجعلُها تُشبِه الكائنات التي تحيكُ حولها العجائز قصصًا خرافية تمنعُ خروج الصِّبية من البيوت وقت الظهيرة وقيلولة الآباء، وهذا ما يدفعني إلى عدم النظر إلى وجهها. كنتُ أخافُها وأمقُتُها لقسوتِها مع دجاجاتِ البيت؛ تقتل كلَّ يومٍ واحدة، تحُزُّ عُنقها تُسيل دمها، وتنزع ريشَها بقسوة. تُخالفني أُمي الشُّعور. فايقة لا تتغيرَّ، أصيلة، مثل أفعى الدَّار، شكلُها لا يوحي بإخلاصٍ تكنُّهُ لأهل البيت، عرفناها وفيَّةً وفاء أمِّها لجدِّتك. أخافتني أُمِّي بِقَولِها أكثر، على عكس ما أرادت، فكرة وجود أفعى في الدَّارِ كفيلة بجعلي أزدادُ نفورًا وانقباضًا.

لا أنسى أبدًا كيف كان والدي، خلال زياراتِه، يلتهمُ ابنة فايقة بنظراتِه كُلَّما مرَّت من أمامِه. وجدتُه أكثر من مرَّةٍ في المطبخ أو حوش

الغنم يختلي بالفتاة. يهمسُ في أُذنها بما لا يُسعِفُني الهمسُ لِسماعِه. تصُدُّه. يمضي غاضِبًا يجُرُّ خيبتَهُ وراءهُ. لمحني ذات مرَّةٍ عند مدخل الحَوش. قال وهو يُمرِّرُ سبَّابتهُ أسفل ذقنِه. لو نطقتَ بكِلمة!

ذات ظهيرة، حثَّت فايقة الخطوَ، في حوشِ الغنم، وراء إحدى الدجاجاتِ الهَلِعَةِ تحملُ سكِّينًا في يدِها. نظرتُ في وجهها على غير دأبي. أرعبني منظرُ ابتسامةٍ على وجهِها قصَدَت بها أن تُطمئنني. ابتسامةٌ ضاعفتْ اتساع جرح شفتيها كاشِفةً عن لثَتِها باهِتة اللونِ ولسانٍ يظهرُ وراء فراغٍ خلَّفته أسنانها المفقودة. أثرتُ ذُعرَ الدَّجاجاتِ بِصُراخي. رحتُ أجري إلى أسفلِ السُّلَّم أتكوَّرُ على ذاتي وصورةُ فايقة بنصلِ سِكِّينِها اللامِعِ وابتسامتِها لا تُفارقُ خيالي. أتكونُ تلك التي جاء بها والِدي، عونًا لأمي، سافِكة دِماءٍ تنوي إنهاء حياتنا ليخلو له البيت مع زوجته الجديدة إذا ما رغِبَ في العودة؟! ألهذا السبب تركنا أبي؟! لا أدري. يصيرُ الرَّحيل أخف وطأة لو أوجدَ له مُسوِّغًا، مجَّانية الفقد تُحيله جرحًا مفتوحًا في صورة سؤال.

كانت المرَّة الأولى التي أُنصِت فيها إلى هاتِفٍ في داخلي يُفضي؛ حمامُ الدَّارِ لا يغيب، وأفعى الدَّارِ لا تخون. انتفضتُ فزِعًا وقتَ سمِعتُ الصَّوتَ واضِحًا يُشبِهُ صوتي تشوبُه بحَّة. كنتُ لأُؤمِنَ بأنني من لفظَ الكلِماتِ لولا إطباقي شفتيَ. رحتُ أُفكِّرُ في مصدرِ الصَّوت مُطمَئِنًّا إلى قولِه، فهو قولُ أُمِّي بشكلٍ أو بآخر، ولكن أُمِّي ليست في الجوار. أغمضتُ عينيَّ بشدَّةٍ أُرهفُ سمعي مُحاوِلًا استعادة الصَّوت، لكنني لم أُنصِتْ إلى شيءٍ إلا ترديدِ أنفاسي المُتسارعة. كانت أُمِّي في حُجرتِها تخيط فتقًا في أحد أثوابي. ابتسمت عندما أخبرتُها بصوتٍ

همسَ لي بتلك الكلمات. أشارت لي أن أقترب. قرَصَت خدِّي برفقٍ تسـألني بوجـهٍ مُتعـبٍ باسـم. هذا صحيح، ولكـن، صوت من ؟ أبقت ابتسـامتها تتحرَّى ردِّي موقِنة بأنها مصدر القول. سـكتُّ قبل أن أشـير بسبَّابتي إلى صدري. أحدٌ ها هُنا. بهتت أُمِّي تنظرُ في وجهي مُستغربةً هاجِسـة. راحـت عيناهـا تنظـرُ إلى كلِّ شـيءٍ إلاي. تركت الثَّوبَ في حجرِها وألقت بالخيط والإبرةِ في عُلبة حلوياتٍ معدنية إلى جوارها. طوَّقتني بذراعَيها مُرتبِكةً تضمُّني بشَدَّة. اسم الله عليك!

منوال

.. زُرقة السَّماء تأخذُه بعيدًا عن فيروز إلى أمس. تبًّا لك يا أزرق مـاذا تُريـد! يعقِـدُ حاجبيه مُعاودًا إمعـان نظرِهِ في الطائر الرَّمادي وراء نافِذتِه.

«انتظارُ أوبة الثُّلث»

أوشـكت الشَّـمسُ علـى المغيـبِ وقـتَ لاحَت في الأُفـقِ نقطةٌ تقتـرب. قـاربٌ صغيـرٌ جدًّا يدنو إلى اليابسـةِ مُسـرِعًا، يُدوِّي مُحرِّكهُ بهديرٍ لا يتخلَّف عن موعِده. يزورُ كلَّ عامٍ في أَجَلِه. استقمتُ واقِفًا على أطرافِ أصابِعي مُشرئبَّ العُنقِ وقد فككتُ رِباط ثوبي وأسدلته على سـاقَي. مشـيتُ على مهلٍ حافيًا، أقطعُ اللِسـان الصَّخري عُمقًا في مياه البحر. وقفتُ على حافةِ رصيفِ المرسـى أُحملِقُ في النقطة السَّـوداء وقـد اقتربَـت. هُـوَ قارِبُ شـقيقي الأكبر. هجسـتُ لنفسـي أُبشِّـرُها: غـادي. رحـتُ أُحدِّثُنـي: غـادي الأسـرع والأول على رأس

العائدين دائِمًا. سكتت النوارِسُ وقتما دنا القارِبُ بهديرِ مُحرِّكِه إلى السَّاحِلِ. راحَ غادي يلوِّحُ لي بيدِهِ ويُشيرُ وراءهُ نحو الأُفُقِ وقتَ ظهر مركبٌ أكبر حجمًا أبطأ حركةً. ملأتُ صدري شهيقًا أردفته بزفيرٍ طويلٍ يصحبُ أسماء بقية إخوتي الذين هُم على متنِه. رحتُ أُعدِّد على رؤوس أصابعي: سفَّار وعوَّاد ورابحة. إخوتي الذين لو أحصيتُ أيام لقائي بهم بعد هِجرَتِهم، وقتَ كنتُ في سادِسَتي، فلن تُدركَ الأربعة والعشرين يومًا. هو يومٌ واحدٌ في السَّنة، يجيءُ بهم وقد كبروا سنة، يجيءُ بهم في كلِّ مرَّة وقد تغيرت ملامحُهم عن المرَّة الأخيرة، من دون أن يكون لي ذاكِرة تحفظُ أيامنا ونحن نكبُر معًا في بيتٍ واحد. يا لِظلمِكَ يا والدي. ها قد آنت أوبةُ إخوتي السَّنوية فيما يُشبِه الحجَّ إلى قبرِ أُمِّنا في ذكرى وفاتِها يومَ غد. تنهَّدتُ ألفظُ وجعي همسًا كأنما أُذكِّر البحرَ بوعدٍ لم يقطعه أبدًا: بقي الصَّغيران؛ زينة ورحَّال. وبينما صورة السَّفينة التي أخذتهما تومضُ في رأسي، رمى غادي مِرساتَهُ الصَّدِئةِ بحرًا إلى جانب الرَّصيفِ الصَّخري. التهمتُ ملامِحَهُ بنظري أجترُّ فُتات ذكرياتٍ جمعتني به طِفلًا. شقيقي الأكبر، عُزوَتي، مَثَلي الأعلى الذي يكبُرني بعشرين عامًا، سندي إذا ما تنمَّر عليَّ صبيةُ الحَيّ وسرقوا كرياتي الزجاجية، يكفيني أُنادي مرَّةً واحِدة: غادي! حتى يغدو كُلّ شيءٍ مثلما أريد. شيءٌ من اثنين لا بُدَّ أن يصير؛ أن يجيء غادي مُشمِّرًا كُمَّيهِ عن ساعِدَيه ينتقِمُ لشقيقِه الأصغر، يستعيدُ كرياته المنهوبة، أو أن يهرب الصبيةُ المتنمِّرون بمجرَّد سماع ندائي. ها هو يجيءُ على وعدٍ قديم، من دون أن أُناديه. لا أريدُه اليوم يستعيد كرياتي المنهوبة. لو أنه يُعيد لي ما افتقدتهُ صبيحة

أمس! قامَ بعقدِ حبلِ القارِبِ إلى أحَدِ أعمِدَةِ المرسى الخشبية. نزل مُتثاقِلًا من قارِبِه في مشهدٍ يتكرَّر كُلَّ عام. صورةٌ لا تحمِلُ جِدَّةً معها إلا شيباتٍ جديدةٍ زاحمت شارِبَ غادي وانحناءٍ منحَ ظهرَهُ تقوُّسًا أكثر مما كان عليه. أحكمَ لفَّ غُترتِه على رأسِه وباعَدَ بين ذِراعَيه، يواجهني بصدرِه، يومئ لي برأسِه باسِمًا: تعال! له استدارة وجه أُمِّي وابتسامتها. أسرعتُ إليه أُعانِقُه. مسَّدَ على ظهري يُعزِّيني. لعلَّ أحدهُم أبرقَ إليه يُنبِؤه بالفاجعة. أيُّ صُدفةٍ في أن تسبِقَ فجيعتي ذكرى فقد أُمِّي بيومين! تشمَّمتُ رائحةَ طينِ بَيتِنا القديمِ في ثوبِ غادي وجلدِ رقبتِه المتغضِّن. مِن شأنِ عشرين سنةٍ يكبُرني بها غادي أن ترتفع به إلى منزلةِ أب، وأن تهبطَ بي إلى منزلة ابنٍ صغير. غبتُ في عِناقِه حتى انتبهتُ إلى وصولِ المركبِ الكبير، قاطِعًا طريقهُ بين زوارق خفر السَّواحل، تحتكُّ أخشابُه في صُخورِ المرسى. ينزلُ سفَّار وعوَّاد، يُثبِّتان لوحًا خشبيًّا مثلَ جِسرٍ بين المركبِ والرَّصيف الصَّخري، يُعاونان رابحة المُتَّشِحة بالسَّوادِ على العبور. يقِفُ الاثنان إلى جانبيها يُمسِكان بيديها. أُنقِّلُ بصري على الوجوه الثلاثة. أجمعُ ما وَرثَتهُ من ملامحِ أُمِّنا؛ دِقَّة أنفِ سفَّار وشفتاه، عينا رابحة وغمَّازة خدِّها الأيمن، اتساع جبينِ عوَّاد وانحناءة حاجبيه. تجمعُنا أُمِّي في ملامحها المنثورة في وجوهِنا وطباعِنا، ونفترق في ملامح والدي التي لم أرث منها شيئًا، كأنها ميراث اقتسمه إخوتي من دوني.

يتقدَّم الأربعة صَوبي وحضور رابحة يُشبِه حضورَ أُمِّي يدفعُني للركضِ نحوَها مثل طفلٍ يُقابل أُمَّهُ بعد فراق. أقِفُ أمامها أروي عطشًا خلَّفهُ غيابُ وجه غاليتي. تُلصِقُ كفَّها إلى وجنتي تتحسَّسُ

وجهـي، تقرؤنـي كمـا لو كنتُ ولدها. حبيب أختك يا منوال. يحمرُّ أنفهـا تفتعـلُ ابتسـامة، تتخضَّـلُ عيناهـا، تتقطَّـع أنفاسُـها وترتعـش شفتاها. تسكتُ عن قول شيءٍ لئلا تبكي فيجرُّ بُكاها بكائي. أعانقُها. أتنشَّـق رائحـة أُمِّـي في عباءة أختي. أنظرُ مـن وراءِ كتِفِها إلى البعيدِ عنـد تلاقـي السَّـماء والبحـر. يهتزُّ جسـدي بُكاءً غصبًا عـن إرادتي. أنخـرطُ فـي نحيبٍ بفِعل فقدَين، أحدهُما دفعتْ بذِكراهُ رائحةُ عباءةِ رابحة، والآخر لم يُفارقني منذُ مرور السفينة العملاقة من هُنا. من أين لإخوتِكَ، غير الدَّم، صلةٌ تجعلهُم إخوة؟ صلةٌ تتجاوز تاريخكم بكلِّ هنَّاتِه وسنواتِ القطيعةِ وقتَ يُعانِقُ واحدُكُم الآخر، صلةٌ تمنحُكَ في العناق شعورًا آمِنًا بأنك تستعيد جُزءًا مبتورًا من جسدك. تُمسِّدُ رابحة على رأسي وأنا في حضنِها: ابلكِ، ابلكِ يا ابن أُمِّي. أُمرِّغ وجهي بين عُنُقِها وكتِفِها أُسمي فجيعَتي: زينة ورحَّال! يتحشرج صوتُها: أدري.. أدري.. حمامتـان مـن حماماتِ الجنَّةِ يـا حبْيَبِّ أختك، أخذهُما مَن جاء بِهما. ارتعشت شفتاي تلفُظانِ ما يدريهِ عقلي: لن يعودا! يتحفَّزُ الهاتِـفُ القديـمُ فـي داخلـي وأُرَدِّدُه فيما يُشـبِه صلاةً: حمـامُ الدَّارِ لا يغيب! أسندتُ ذقني إلى كَتِف رابحة أُطوِّقُها بذراعَي. أطلقتُ بصري إلـى البحـرِ أبتسـم. يطيـبُ لي قولي الـذي تُبرهِنُ علـى صدقِه عودةُ إخوتـي كلَّ عـامٍ رغـم طـول الغياب. يُربِّتُ غادي علـى كتِفي مُبدِّدًا خيالاتي. لا داعي لانتظار ما لن يعود. أنتفضُ أُجيبه. مَن يجيء بِكُم كلَّ عام.. يجيءُ بهما.

منوال

صـارَ منـوال يدخُـل غرفة نومِه بظهره. جـرَّبَ يوم أمس أن يلِجَ الغرفة مُتقهقِرًا، مُتظاهِرًا بعدمِ انتباهِه إلى طيورِ الدكَّةِ وراءه. ينظرُ إلى الزَّرازير والفواخِت والحمامةِ في المرآةِ أمامه. الغريب أنها لم تهرُب!

..

..

«مُناوَشَةُ شَكٍّ لِيَقين»

تركتُ المرسى قبيل الفجر وراء ظهري، أحملُ خيبتي ماضِيًا إلى بيتنـا العربـي القديـم الذي لم أعد أزوره إلا مرَّة في السَّـنة وقتَ إياب إخوتي. صارَ ما يُشبِه نُزُلًا وقتَ زيارتهم. وجدتُه خاليًا من زوَّارِه الذين أقبلوا يومَ أمس. لا أثر لهم إلا في صورة جدارٍ قديمة، تجمع والديَّ وإخوتي من دوني. كنت أحتاج إلى إخوتي أكثر من أي وقتٍ مضى. حمامـات الـدَّارِ كدأبِهـا فـي حجِّها السَّـنوي تخرجُ فجـرًا إلى المقبرةِ قبلَ ذهابها إلى سـوق المدينة، ثُمَّ إلى المرسـى من أجلِ عودتها إلى الجزيرة. فلتعذرني أُمِّي هذه السنة لتخلُّفي عن زيارتها، ولتنعم بزيارة حماماتِها الأثيرات. عدتُ إلى المرسـى لعلَّ زينة ورحَّال قد اسـتدلَّا طريقًا يجيءُ بهما إلى السَّاحل في اليومِ الثاني لغيابِهِما.

رفعتُ ثوبي أطوي طرفهُ عاقِدًا إياه عند خاصرتي. أقعيتُ فوق صخُّـورِ رصيـفِ المرسـى أُرسِـلُ نظري بعيـدًا، أُمشِّـطُ صفحة الماءِ المتراميـة علـى مـدِّ البصـر. لا أثـر لبُغيَتي بين كُرياتٍ إسـفنجيةٍ، غير بعيـدة، تطفـو مِـن شِـباكِ طـاروف، وبقايا أخشـابٍ وقـوارب صغيرة

تناثرت في المكان. بين عقلي وإيماني كنتُ شارِدًا أطفو في الوسط. يوشِكُ هذا العقل أن يُسلِّم بأمرِ عودتهما إزاء إصرار رغبتي المريضة. ألم تقُل إنهُما لن يعودا؟! رحتُ أُفكِّر. صغيران والموجةُ كانت شديدةً عالية. انتفضتُ وقد أفزعتني فكرةٌ لا محلَّ لقبولِها لديَّ. انتزعتُ من داخلي ما يُبقيني على قيدِ أمل. رُبَّما. هززتُ رأسي ألجأُ إلى إيمانٍ غافٍ أوقظه. نعم، رُبَّما. الـ رُبَّما صارت أكيدًا وأنا أُغذِّي رغبتي برؤيتهما. رحتُ أُكرِّر. أكيد. أكيد. تربَّعتُ على الصُّخور أُهيئُ نفسي لانتظارٍ طويل. تمرُّ قِطةٌ يتبعها صِغارُها. أبتسم. أتذكرُ الصَّغيرَين وقتَ كُنَّا هُنا، في السَّاحلِ المُحاذي للمرسى. أشير لهُما نحو الرَّصيف الصَّخري. غدًا يجيء أعمامكما لزيارة قبر جدَّتِكُما. يركُضان كأن الفقدَ شيءٌ لن يكون. يرُشَّان الماءَ على بعضِهما ويُشيِّدان بيوتًا من الرَّمل وصخورِ البحرِ وقواقِعِه. مضى الاثنان مثل الزمن، وبقيت أنا على قيدِ انتظار. منيرة أيضًا كانت هُنا، تُقرفِصُ إلى جواري. كلانا كان مُطمَئِنًا قبل أن تأتي السَّفينةُ تحمِلُ معها الصَّغيرَين من دون إذنٍ وتمضي. أيُّ وجعٍ حَلَّ بك وقتَ استحالت كلمتك الأثيرة، على لسانَيهما، أخيرة: يُبَهْ. يُبَهْ. يُبَهْ. تلك الكلمة التي لم تُسعِفكَ يومَ مددتَ ذراعيكَ لأبيك وقت غرقتَ صغيرًا، كلمة يُبَه التي لا يسمعها والدك قط مهما ناديته بها، لم تُسعِف صغيرَيك وقتَ مجيءِ السَّفينةِ التي لعنتكَ بأُبوَّتِك. أمضيتَ سنواتٍ من زواجِكَ تنتظر مجيئهما. جاءا، ولكنك لم تفلح في الحفاظ عليهما، فامضِ بقيةَ عُمرك في انتظارِ ما أضعته.

مضى الوقتُ بطيئًا وأنتَ تُناورُه باستعادةِ ذكرياتٍ قريبة وأخرى

بعيدة. ساعاتٍ لم يتخللها شيءٌ عدا أسئلة البحَّارةِ في ذهابِهم وإيابِهم. أي أخبار؟ تومِئُ برأسِكَ تحتمي بصمتٍ يُغنيكَ عن إجابةٍ تمقُتُها. تدنو الشَّمسُ نحوَ مغيبِها بغير اكتراثٍ لِعَوزِكَ إلى أشِعَّتِها تعينكَ على رؤيةِ مُقبلٍ مُحتمل. احتمالٌ لا مكان لتحقيقِه إلا في أملٍ عبثي ابتدعتهُ تُسميهِ إيمانًا يُكرِّسُهُ قولٌ لا أساس له؛ حمامُ الدَّارِ لا.. يُربِّتُ أحدهم على كتفك. ترفعُ رأسك. غادي بوجهِهِ المُتعب يسأل. يا ابن أُمِّي، ألن تزور قبرها؟

أستقيمُ واقِفًا أمام غادي. أشيرُ بذقني صوبَ البحر. سوف أفعل.. مع الصَّغيرين فورَ عودتِهما. يلتفتُ غادي إلى سفَّار وعوَّاد ورابحة كأنما خذلته بردِّي. يتبادلون الصَّمت. تقتربُ رابحة بملامح متوسِّلة. منوال، لم يبقَ لك أحدٌ هنا، ألا تأتي معنا؟ وكأنها لا تدري أن لي في هذه الأرضِ قبرًا لا أُطيق فراقه، وأملًا يُبقيني في هذا السَّاحل منتصِبًا مثل فزَّاعةٍ قديمةٍ مُهترئة. ثُمَّ من أين لها يقينُها بألا أحد لديّ؟ أسألُها أستوضح إلامَ ترمي. هل زُرتِ منيرة؟ أومأت تُردِف. زرتُها، وأنصحك ألا تفعل! أُشيحُ ببصري صوبَ البحرِ أبتلِعُ حروفًا لا طاقة لي بلفظِها. زوارق خفر السَّواحل باتت بعيدة، بالكاد ألمحُ بعضَها. يمضي إخوتي نحوَ المركبَين يحملون أمتعتهم. يرحلون. كيف يرحلون هكذا؟ لقد روَّضهُم الفقدُ على القبول مُذ إذعانهم الأوَّل لقرار والِدنا بالرَّحيل. يضجُّ المرسى الصَّغير بدَويِّ قاربِ غادي. يتبعُه مركبُ الثلاثة. يُلوِّحونَ بأيديهم موغلين في ابتعادِهِم بحرًا. أُلوِّحُ لهم بإيماني الرَّاسِخ بعودتِهم الأكيدةِ بعد عامٍ من سفرِهم، كما سيفعل رحَّال وزينة قريبًا ليجداني في المرسى أنتظر. يخبو إيماني لحظةَ اختفاء إخوتي.

لحظةَ يخبو هدير المراكبِ بعيدًا. لحظةَ أجدُني وحيدًا. أُردِّدُ اسـمَي الصَّغيرين كتعويذةٍ تُبقي على إيماني. يُعاندني عقلي. لا تنتظر، وحدهُ المُسافِر يعود، لم يُسافِرا، لن يعودا.

منوال

.. تذكَّر منوال فيروز التي طال غيابُها. أترُاها تاهت في السَّماء؟ هل ابتلعتها الزرُّقةُ هي الأخرى؟ ما كاد يُنهي تساؤله حتى ظهرت على دكَّة النَّافِذة تحمِلُ ورقة شجرٍ يابسة..

«مِنحةُ العَقلِ ومِحنَتُهُ»

لا أفهم شيئًا. لماذا أنتظرُ رحَّال وزينة في المرسى وغيابهُما ليس مثـل غيـابِ إخوتـي، لِمَ هذا الانتظار ما لم يكونا في سـفر؟! أنا أُذعِنُ لإيماني، والإيمان لا يعدو كونه رغبة، والرغبة ليسـت أكيدة التحقُّق ولكن شيئًا أفضل من لا شيء. أوغِلُ في تفكيري تشاؤمًا لعلَّ الهاتِفَ يصحـو مـن غفوتِـه، كما عوَّدني، يُسَـكِّنُ رعشـة أضلُعـي. أُكذِّبُه لعلَّه ينتفض، يُثبِت لي عكس ما أقول. أسـئلةُ الفقدِ تطوِّقُني. ألعنُ عقلي. والسُّـؤال.. وحدهُ السُّـؤال مِنحةُ العقلِ ومِحنتُه. والإيمانُ هو أن تُعلِّقَ أسئلتك على حِبالِ الغَيب، وأن تُجَمِّد عقلك، وأن تعقِدَ صفقةً مع لا شيء، لأن لا سبيل لك إلا انتظار غدٍ قد يجيءُ بما تُريد أو لا يجيء. لا العقلُ يُسعِفُني ولا الإيمانُ ولا برزخُ الأسئلةِ بينهُما.

بقيـتُ مُقرفِصًـا علـى الصُّخـور أنتظر. حائـرًا بين اثنيـن؛ مؤمِنٌ بفكرتـي وأرفضُها، كافِرٌ بحَدسـي وأرغبُـهُ. أدرتُ ظهري للبحرِ وقتَ

ابتلعت الظلمةُ المرسى. حشثتُ خطوي إلى بيت أهلِ زوجتي. مضى يومان من دونِ أن أراها وقد غصَّ بيتهم بالنِّساءِ اليومَ وأمس يُعزينها. مِـن أيـن لهُـنَّ هذا اليقين؟ كيف يُعزِّي المرءُ بطفلَين يمكُثانِ في مكانٍ غير معلوم، يعودان غدًا أو بعد غد!

منوال

.. مـرَّرَ ظاهِـرَ كفِّـه على ذقنِهِ. تحسَّـسَ شـعرَهُ الأشـيَب النابت. غريـب! كنـتُ صغيـرًا يومَ أمس! غارَ رأسُـه بين كتفَيه. قطَّبَ حاجِبَيه. ألصقَ فكَّه السُفلي برقبتِه ونفخَ صدرَهُ: غرووووغ غرووووغ.

* * *



صباحٌ ثانٍ

«.. أخذَ يُلوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رحَّال.. زينة! ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

.. اركُض يا جبان! ثُم أقفلَت طليقته الخط. ركضَ منوال إلى المطبخ يغلي الماء.

«فاقِدُ الشَّيءِ، قد يُعطيه»

تبعتُ والِدة زوجتي مُتردِّدًا ثقيل الخُطى إلى حُجرةٍ في منتصف ممرِّ المدخل تمكثُ فيها منيرة. حُجرةُ ضيف، وهذا يمنحني شعورًا بأنها لن تُطيل البقاء، منيرة حتمًا تعود. أدسُّ كفِّي في جيبيّ ثوبي. أُفكِّرُ في دافِع أُمّ منيرة لأن تستقبلني مُستترةً بعباءتها، تُمسِكُ بجزءٍ منها أمام وجهها لا تكشِفُ إلا عينًا واحِدة كأنما تستقبِلُ غريبًا. يتناهى إلى سمعي بكاء طِفلة. أتلفَّت. ابنة أخت منيرة تبكي في آخر الممرِّ. تركضُ نحوي تتشبَّثُ بثوبي. عمِّي عمِّي أعِد لي الدُّميتَين. لم أفهم شيئًا. أبعدتها جدَّتُها ناهِرَة وأشارت لي أن أتبعها. فتحت باب الحجرة تومئ لي بالدخول قبل أن تنصرف من دون أن تفوه بكلمة. مِلتُ برأسي أنظرُ داخل الحُجرةِ الضيِّقة. ألفيتُ منيرة مُقرفِصةً في الزاوية على أريكة أرضية، تحمِلُ بذِراعيها دُميتَين بلاستيكيَّتَين مُقمَّطَتَين بأقمشةٍ مُتسخة؛ قماطٌ وردي، وآخر أزرق سماويّ. تُهدهِدُهما تُنشِدُ تهويدةً حزينةً

وعيناها ناعِستان ساهِمتان نحو الأرض. أسندت إحدى الدُميتَين بين فخذَيها في حين أسندت رأسَ الأُخرى إلى زندِها. فكَّت عُقدَةَ ثوبِها عند الصَّدرِ وعيناها نحو الأرض لا تزالان. حرَّرَت ثديَها تُلقِمُ الدُّمية حلمتها وهي تُبسمِل وتُمسِّد على رأسِها البلاستيكي. دخلتُ الحُجرة مُتنحنِحًا. حدجتني منيرة بنظرةٍ غضبٍ أو حزنٍ مرير، لا أدري، لمستُ في نظرتها المضطربة وانكماش جسدِها نفورًا. دنوتُ إليها مادًّا كفِّي إلى رأسِها. غارت رقبتها بين كتِفَيها من دونِ أن تنظر إليّ. كدتُ أُلامِس رأسها أُمسِّده لولا أن عاجلتني تضربُ كفِّي بيدِها تُبعِدُها. كفِّي قريبةٌ لا تزال. أناوِرُها. منيرة! ألقت نظرها على كفِّي متوجِّسة. زعلانة؟ سألتُها. عاجلتني بضربةٍ أُخرى أشد. سحبتُ ذِراعي. لا بأس. صدِّقيني. تحشرجَ صوتي. حمامُ الدَّارِ لا يغيب. ظلَّت منيرة بعينين حمراوين لامعتين تُراقِبُ كفِّي العائِدة إلى داخلِ جَيبي. ابتسمتُ لها وقد هدأ خوفُها. حتى أنتِ تؤمنين بما أؤمن. ابتسمتُ أدفعُها لأن تردَّ لي ابتسامة. عيناها الشَّارِدتان تنظران إلى الأرض ثانيةً. أفلتت دموعًا غزيرة وهي تهزُّ زندَها وفخذَها تُهدهِد الدُّميتين. تترنَّم بصوتٍ هدَّهُ التَّعب:

للحبيب وسادة، حطّيت زندي، للحبيب وسادة
نحت أنا لو أبرا، نوح الحمامة، نحت أنا لو أبرا
من أين للحمامِ قُدرته أن يوجِدَ له مَحطًّا في كُلِّ ظرف؟!

منوال

.. أطلقت فيروز جناحيها للرِّيح. جحظت عيناه وهو يُحدِّقُ في

العُشّ. أسـندَ كفَّيه إلى رأسِـه فاغِرًا فمَهُ على اتسـاعِه. يا جبانة تعالي! كيف لها أن تترك بيضَتيها على هذا النحو؟.. حملَ البيضتين في كفِّه المرتعشة. دِفءُ فيروز على قِشرتِهما لا يزال.. زينة ورحَّال! نعم، أنتُما زينة ورحَّال! كان يحلُم بمثلِ هذه اللحظة مُنذ أمسٍ طويل. هزَّ رأسه يضحك. حمامُ الدَّار لا يغيب.

«زُرقةٌ تفتحُ أبوابَها على موعِدٍ مستحيل»

أتذكَّر والدي في ذلك المكان، حاضِرًا بجسدِه مرّةً، وبشبحِه مرَّة أُخرى بعد زمنٍ طويل، في ذلك المرسـى المشـطور بين زمنين، زمن هِجرة إخوتي البعيدة قبلَ أربعٍ وعشـرين سـنة، وزمن سـوف يجيء بعد سنواتٍ طِوال يشهدُ فيه هذا المكان فجيعتي بالصَّغيرَين، فجيعتي قبلَ يومَين.

في سادِسَتي كنت. غادي في عشرينِه. رابحة وعوَّاد وسفَّار على ذلـك الترتيـب، كُلٌّ يصغُـر الآخـر بعامين. يسـيرُ الأربعة على رصيفِ المرسـى مطأطئيـن مُذعنيـن. أجري نحوهـم مادًّا ذراعَـي. أُنادي كلًّا باسـمِه. يقطـعُ والـدي طريقي إليهم. يفتح ذراعيـه يصيحُ بي. البيت، البيت عند أُمّك! إخوتي لا يلتفتون إليّ. وأمي الباكية في بيتنا موصِدة بابها لا قول لها إلا ما حمَّلتني إياه. قُل لهم: لا تقاطعوا!

أقفُ أنظرُ إلى إخوتي مُطرقين ماضين في الرَّحيل. يتبعهُم والدي غيـر مكتـرثٍ لـكلِّ مـا وراء ظهـرِه؛ المدينة، البيت، أُمـي وأنا وخوفنا العالِقِ غصَّةً في حلوقِنا. يُبحِرُ المركبُ مُبتعِدًا. الرِّيحُ شـديدة تصفعُ أُذُنَيَّ وتُبعِدُ غُرَّتي عن جبيني. كفَّاي في جيبَيّ أُحدِّق في الزُّرقةِ ساهِمًا.

لم أفكِّرُ في الرِّيح مؤمنًا بسلامةِ وصولِهِم، ومن ثم عودتِهِم إلى دارِنا مهما طال الغياب، حتى وإن حالَ والدي بيني وبين إيصالِ قولٍ صارَ وصيَّة لم يُسعِفُني الوقتُ لتنفيذِها: لا تقاطعوا.

وبعد مرور زمن طويل على هجرةِ إخوتي، وقفتُ في المكانِ ذاتِه على حافَّةِ خليج المرسى حيث يبدأ الشَّاطئ، مُتخلِّيًا عن ذكرى سادِستي وأنا في الثلاثين، وقفتُ هُناك أقضِمُ أظفاري وقتَ مرَّت سفينةٌ كسَرَتني في داخِلي وهدَّت دارًا آمنة. كان والدي قد تُوفي مُنذ زمن، قيلَ إن زوجته وجدتهُ على السَّرير ميتًا، يرفعُ سبَّابتهُ اليُمنى يشهد ألا إله إلا الله، ويرفعُ وسطاهُ اليُسرى في وجه العالم!

رغم موتِه لم يزل يُطوِّقُني بالخوفِ من البحر. الأزرق الذي مُذ شربتُ ماءهُ غرقًا ما فلحتُ أطفو فيه يومًا. كان والدي هُنا وإن لم يكُن. يحولُ بيني وبين زينة ورحَّال وأذرعِهِما الممدودةِ نحوي. كانا ينظُران إليَّ لعلِّي أفعلُ شيئًا إزاء أزرق يُداهِمهُما وأزرق يُداهِمُني، ولكنني لم. أوشكتُ أن، ولكن شبح والدي أفلح في صدِّي. أطلقا صرخاتهما إليّ. يُبَهْ. يُبَهْ. يُبَهْ. ظهرَ أبي، أعني شبحهُ، لا أدري من أين، ولا أدري لماذا استفزَّتهُ نداءات الأب وهو الذي لم يكترث لنداءاتي صغيرًا وقتَ تركني للغرق! ظهر خيالُه على حين غُرَّةٍ يواجهُني، يصُدُّني فاتِحًا ذراعَيه عند التقاء الرَّملِ بالماء. لا أتذكَّرُ صورةً عدا الأزرق، والشَّبَح بقامتِهِ الطويلة مُلقيًا غُترتَهُ على رأسِهِ كيفما اتَّفَق، يناوِرني، يُصفِّقُ ويُصَفِّر ويدفعُني بعيدًا عن صغيرَي. الخوف. الخوف هُوَ كُلُّ ما بقيَ عالِقًا بالذَّاكرة، وصوت نداءاتي فورَ ما خَبَت نداءاتهُما.. زينة! رحَّال!

رفعتُ طرف دِشداشَتي إلى فمي أعُضُّ عليه. أدرتُ ظهري للبحرِ وركضت.

منوال

تنبَّـه إلـى البيضَتيـن في كفِّهِ وقـد فقدا دِفءَ فيروز. ارتبك. أطبقَ كفَّيـه عليهمـا برفـق. قـرَّبَ كفَّيه إلى شـفتيه وراح ينفُـخُ ببطء. عبث! أعادهُمـا إلـى العُـشِّ وأطبـقَ زجـاجَ النافِـذة .. رفعَ رأسـه إلى أعلى الجِدار. لو أن للنافِذةِ سِتارة؟ كان لهذِه النافِذةِ ستارة! أجهشَ.

«تَحالُفُ الأضدادِ ضِدَّ قليلِ حيلة»

لـم أقـوَ علـى النظـر فـي عينَي منيـرة. هِيَ لم تعُـد موجودة حتى أفعل، أقول أو أُبرِّر. منيرة منذُ أمس في بيتِ أهلِها في حين مكثتُ أنا في شـقتنا أعصرُ رأسـي مرَّةً، وأضرب صدري بقبضتي مرّات. أُراوحُ بيـن فكـرةٍ وحدس كلاهُما يبدو مُقنعًا إزاء هواجسـي. أُغمضُ عينَي. لـن يعـودا. لـن يعـودا. أُكرِّر القـولَ لعلَّ هاتِفًا في صـدري يُجيب. لا يُجيـب! لـن يُطيـلا الغياب، أليس كذلك؟ بابُ الشُّـقَّة الوحيد سـوف يُطـرَق. نعـم، سـوف يُطـرق. أفتحه. منيرة تُمسِـكُ بيَـدَي الصَّغيرين. ينظران إليَّ بعيونهما الشَّـهلاء يبتسـمان. أجلِسُ على رُكبَتي عند عتبة البـاب أُعانِقهُمـا. أُطـوِّق كلًّا منهُمـا بـذراع. أتشـممُّ رائحتهما. أرفعُ رأسي لِــ منيرة أعتذر. أُقسِمُ أن ما حدث لن يتكرر. أنتفضُ إثر فكرةٍ عابرة. تختفي منيرة. يختفي الصَّغيران ويوصَدُ بابي من جديد. أنا أكرهُ أن أُفكِّر. هذا الشـيء الذي هُنا، مصدرُ الإدراكِ قاسٍ، صادِمٌ بشِـعٌ لا

يُلطِّف حقيقة، ولكن.. من أين للمرءِ أن ينأى بطمأنينتِه عن صُراخِ عقلِهِ إزاء إيمانِه الأخرس؟! شـيءٌ ما في هذا العقلِ أصُدُّه، أفكارٌ أُسـميها وَسـاوِس تدفعُني للجنون. فتحتُ باب شُـقَّتي لا ألوي على شـيءٍ إلا إدراك السَّاحل قُرب المرسى. أدعكُ عينَي أُزيل ضبابَ الدمع عنهما. ابكِ يا أنت! ابكِ وانتظر شيئًا لن يعود أبدًا!

هنـاك، غاصَـت قدماي عنـد التقاء الرَّملِ بالمـاء، بكيت. بكيتُ غياب زينة ورحَّال، وضعف إيماني بعودتِهِما، وقسوة عقلي.

منوال

.. يُقطِّبُ حاجبيه. يتذكَّر. طوَّقهُ أبوه بذِراعِه يسحبُه نحو السَّاحِلِ مثل خرقةٍ باليةٍ مُبتلَّة. جبان! تركه على الرَّملِ في شِبه إغماءة. انحنت الأُمُّ على صغيرِها تلُفُّه بمنشفةٍ وهي تبكي. استفرغَ الماءَ المالِح على جسدِه. الماءُ المالِحِ حليفُ الشؤم..

«أفعى الدَّارِ لا تخون»

في غُرفةِ منيرة التي حسِبتُها مؤقتة، في بيتِ أهلِها، كنت أجلسُ مُقرفِصًا في الرُّكن صامِتًا. تركت منيرة الدُّميتين البلاستيكيتين على مرتبـةِ جلـوسٍ أرضية. أطبقت الدُّميتـان أجفانهُما فورَ ما صارتا في وضعيـة النَّـوم. رحتُ أُحملِقُ فـي وجهَيهِما. تذكَّرتُ صَغيرَيَّ وقتَ كانا رضيعين. لمحتُ شبهًا بينهُما وبين. طردتُ الفكرةَ من رأسي. كل الأطفـال الرُّضَّـع يتشـابهون، حتـى الدُّمـى. أدرتُ وجهـي نحو الباب لِئَلا أوغل النظرَ في الدُّميتَين. شـيءٌ يشـدُّني للالتفاتِ إليهِما.

أدرتُ وجهي صوبَهُما ثانية. لماذا يا منيرة؟! كنتُ أُحدِّثُني وأنا أُراقِبُ غيابها مع خيالاتها. سوف يعودُ الصَّغيران عاجلًا، ما الداعي لهذين الشَّيئَين؟ انتفضتُ حينما شدَّني ظِلٌّ دخلَ الحجرة يسبقُ صاحبه. التفتُّ إلى الباب المُشرع. فتحتُ عينَيَّ على اتساعِهِما أنظر إلى فايقة التي تعرَّفتُها فورَ رؤيتها. تحمِلُ دلوًا. تُشبِهُ صورتها القديمة لولا عصا خشبية تتوكأُ عليها، وخصلاتٍ بيضاء لا حناء تلوِّنُها تظهرُ من تحتِ مِلفَعِها، وانفراجة خطم الأرنب التي بدت أكثر اتساعًا ورخاوة. رمقتني تبتسم. لم تُبدِّد ابتسامتُها حُزن وجهها، ولَم تُفزِعني الابتسامةُ هذه المرَّة. لم تفُه بكلمة. أسندت عصاها إلى الجدار ثم أقعَت إلى جوار منيرة والدُّميتَين تفكُّ قماطَيهِما المُتَّسِخَين. تنزعُ لِباسهُما. تتناولُ قطعة قماشٍ من الدلو يتصاعدُ منها البُخار. تعتصرها قبل أن تُنظِف الجسدين البلاستيكيين. حولَ الرقبة، أسفل الإبطين وبين الفخذين. تُقمِّط الصَّغيرَين بقماشٍ نظيف. داهمتني ذكرى ابنتها على نحوٍ مُفاجئ. نظرتُ إلى منيرة الصَّامتة. أتذكَّر وعدي لها في أيَّام زواجنا الأولى. لا امرأة من بعدك! أتذكَّر سؤالها. ومن قبلي؟ أتذكَّر سكوتًا أحاطنا وصورة فتاتي الأثيرة لا تُبارح مُخيلتي. حملت فايقة دلوَها تتكئ على عصاها تسبقُ ظلَّها إلى خارج الحجرة. تبعتُها بعينَيَّ والخرَسُ يُخيط شفتَي. أتذكَّر كلام أُمي. فايقة أصيلة وفيَّة للدَّار. جاءت من وراء سنواتِ القطيعةِ كما لو أنها لم تَغِب يومًا. جاءت إلى منيرة تؤدي دورًا لا تتقن سواه؛ أن تكون قريبة من أهل الدَّار.

عند السَّاحِلِ قريبًا من المرسى أرسلتُ نظري بعيدًا وراء آمالي.

سـوف يعـود الصَّغيـران، تحملهما منيـرة وتطرق باب شُـقَّتي الباردة، يدخلون حاملين الدفء معهم. نعم، سوف يطرقون بابي.

وما دامت فايقة لا تتغيَّر، أصيلة، وفيَّة للدَّارِ لا تخون، فإن حمَام الدَّار..

منوال

.. مرَّر قبضتَهُ المرتعشةِ ببطء. فزعتْ. طارت فيروز من دون أن تصفعهُ بجناحِها كما تمنَّى. حالَ غروب الشَّمسِ دون ابتعادِها. لاذت بسـعفةِ النخلةِ المضطربة. نثرَ البذورَ في الهواءِ غاضبًا. ضربَ الدكَّة بقبضتَيه. طيري يا جبانة!

.. أفزعَه منظرُه في مِرآة الحمَّام. وجهُه باهتٌ بين رماديٍّ وأزرق. إنه البرد! أوجَدَ لنفسِه تبريرًا. ألصقَ ذِراعَيه إلى جسدِه فيما يُشبِه وقفةً عسكرية. نفخَ صدرَهُ. غروووغ.

* * *



صباحٌ ثالِث

«.. ابتلعتهُما الزُّرقة. لم يعُد يراهُما. أخذَ يُلوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رحَّال.. زينة! ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

.. تنهَّدَ وهو يشاهِدُ حمامتَهُ الأثيرة تحشرُ منقارها في منقار أحد الفرخَين، لعلَّهُ رحَّال الجديد، كأن أُمَّه تُجبِرُه على الأكل. جسدُ فيروز يهتزُّ بعُنف تبذُلُ كلَّ ما في وِسعِها لتودِعَ سائِل جوفِها في جوفِ الصَّغير. الفرخُ يُحرِّكُ جناحَيه الورديَّين العاريين، إلا من زغبٍ أصفر، كأنما ينازِعُ ويلفظُ أنفاسه مُستفرِغًا روحه..

«اتِّكاءُ رجاءٍ على صُدفة»

لم أكُف التفكير في إخوتي ساعةً بعدما رحل بهم والدي الذي صارَ يعود بمفردِهِ بين حين وآخر. أتراهُم يعودون؟ أُمِّي في المطبخ تعملُ صامتة، وغناؤها لم يعُد. تردِّدُ أحيانًا ترنيمةً تتخللها تنهُّداتٍ وأنَّات. فايقة مع ابنتِها تنظفان الحوش وتعلِفان الغَنَم والطيور. أنا مستلقٍ في زاويةِ البهو، في مكاني الأثير أسفل السُّلَّم أُحدِّثُني وأنظر إلى صورة والديَّ وإخوتي في الجدار. أتذكَّر وقتَ قام والدي بتعليقِها. سألته أين أنا؟ لم يكترث لسؤالي.

أُشيح ببصري عن الصورة، وذكرى يوم تعليقِها، وأُعاود السؤال. أتراهُم يعودون؟ ولأن أحدًا لا يملكُ إجابةً كنت أربطُ أمنياتي بالصُّدَف

مضمونة الوقوع. سـوف أعدُّ إلى عشـرة، وإذا ما قرقعت الأواني في مطبخ أُمِّي؛ يعودُ إخوتي ذات يوم.

واحد.. اثنان.. ثلاثة..

يرتفع هدير الماء في المطبخ. أتباطأ بالعدِّ.

أربعة.. خمسة.. سِتَّة.. سبعة..

تُصـدر الأوانـي قرقعـةً تختلـس منـي ابتسـامة اطمئنـان. أطمـعُ بمحاولة أُخرى تُبدِّدُ شكوكي تقطع بالآمالِ مخاوفي.

أسألُني مرَّة أخرى: أتراهُم يعودون؟

واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة..

أُرهِفُ السَّمع أُصغي. لا شيء. أواصل العدَّ.

..ثمانية وتسعون.. تسعة وتسعون.. مئة!

منوال

.. الطقسُ مـا زالَ بـارِدًا. أمعنَ النظرَ في الفرخَين المرتعشـين، بودِّه لو يحملهُما إلى داخل غرفته يمنحهُما شيئًا من دفء، لكن الغرفة باردة أيضًا!

«إمدادُ الوَهمِ ذخيرةَ اليأس»

كانت زيارة والدي الأولى، على ما أذكر، بعد أسابيع مُذ حمَلَ أمتعتـه ورحـل. تهلَّـلَ وجهـي أمـام وجهـه المكفَهِر. أُمنِّي نفسـي بأن يكشِفَ الباب عن أربعة أرباعٍ لِـ عزوتي الغائبة. ألقى والدي السَّلامَ من دونِ أن ينظر إليَّ يسـألُ عن أمي. أشـرتُ له صوبَ حُجرتها، في

حين رحتُ أجري نحو البابِ أتوسَّلُ إدراك بُغيَتي. لم يكن وراء الباب سوى حمار يحملُ سِلال التَّمرِ وأكياس الدَّقيق والحبوب جاء بها والدي، من السُّوقِ القريب، تأدية واجبٍ لا أكثر.

وقفتُ وراء والدي عند عتبةِ بابِ حجرة أُمِّي. كانت مُغمضة العينين صفراء شاحبة هدَّها المرض. لم يبدُ لـ غمَّازةِ خدِّها الأيمن أثر. انتبهتُ لِقِصَر شَعرِها، مفروقٌ في المنتصف، ينسدِلُ إلى ما دونِ شحمَتَيّ أُذُنِيها الخاليتين من الأقراط. عمَّتي تزورنا باستمرار مُنذ مرضِ أُمي. تقرأُ القرآن من دونِ صَوت وتنفثُ قُرب وجهِها. فايقة إلى جوارها تُزيل الكمَّادات عن جبينِها. تعصرُها وتُغطِّسُها في الماء مرة تلو أخرى. همست أُمي، بصوتٍ لا أعرفُه، من دون أن تفتح عينيها. أنت جئت؟! اكتفى والدي يجيبُها سؤالًا وهو يطوفُ ببصرِه أرجاء الحُجرة. كيف أنتُم؟ والدي لا يسأل عني وعن عمَّتي إنما يُحدِّثُ أُمِّي بصيغةِ الجمع، من دون أن ينظر صوبها بعينيه الحزينتين، تاركًا مسافةً بينه وبينها تُجنِّبُه الاقتراب. تجاوزت أُمِّي سؤاله بسؤال. هل جئتَ بالصِّغار؟ يُفلِتُ والدي ما يُشبِهُ ضحكة. صغار؟! لم يعودوا صغارًا. التفتَ إليّ يُشيرُ بذقنِه. لديكِ ولدكِ الأشهل، صغيرٌ لن يكبُرَ أبدًا. لم ألتفت إلى قولِ والدي، ولم يعُد السؤال القديم يؤرِّقُني؛ لماذا تركني؟ بقدر ما كان صوت أُمي الجديد يشغلُني. تُفلِتُ أنَّة. يتنهَّد والدي. لا ينظرُ ناحيتها وهو يقول بحزنٍ فشلَ يُداريه. اتركي فراش المرض، فإنه لا يمنحك إلا أقصر الطرق إلى الموت. فتحت أُمي جفنيها بصعوبة. نظرت إليه تكُزُّ على أسنانها. لفظت عينها دمعةً كأنما تبصقُ في وجهه. بترتَ أطرافي.. بترتَ أطرافي يا أزرق. أشارَ والدي

نحـوي وهـو يُجيبهـا. مـا زال قلبكِ في صحةٍ جيدة. تقتربُ عمَّتي منه تُحدِّثـه عـن أُمِّـي هامِسـة. قصَّت جديلتيَها نـاذِرةً: لا أُطيلهُما إلا بهم! قالـت زوجتـك عـن جديلتَيهـا وهي تُمسـك بالمقص. هـذه لِـ غادي ورابحة، وهذه لِـ عوّاد وسفَّار. تململَ والدي في وقوفِه. دموعه تبدو نشـازًا في تعابير وجهه القاسـية. اسـتدركت عمَّتي تقول: زوجتك في حاجة إلى مستشـفى. اسـتدارَ يُنادي فايقة، تتبعه تُنزِل حمولة الحِمار. تُطبِقُ أُمِّي جَفنَيها. تجمعنُا الجنّة يا فريخات القلب. نظرتُ إلى السَّقفِ أضُمُّ كفَّي إلى بعضِهِما أسفل ذقني. يا رب!

مضيـتُ إلـى المطبـخِ كأنما أتوسَّـل جُدرانـه أن تمنحني صدى لصوتِ أُمي الذي أعرف. أقتعِدُ كرسـيًّا خشـبيًّا قصيرَ القوائم، أتذكَّر أمُّـي، حينمـا كانـت فـي صحَّتِهـا، فـي موضِعِي تغسـلُ ملابِسـي قبلَ الشُّـروق. لطالما كانت تُغني بصوتٍ رخيمٍ يتسـلَّلُ في ردهات البيت العربي:

نحـت أنـا لَـو أبـرا، نـوح الحمامـة، نحت أنـا لو أبرا

مـا يطيـق الصَّبـرا، يـا مَـلّ قلـبٍ، مـا يطيـق الصَّبـرا

سـألتُها ذات يـوم. أُمِّـي! لماذا ينوحُ الحمام؟ تجاوزت سـؤالي. عِدنـي ألا تغيـب أنـتَ أيضًـا يا منوال، وإن غبتَ فكُن مثل حمامِ الدَّارِ لا يُطيلُ غيابًا. لذتُ بصَمْتي قبل أن أُجيب. أعِدُكِ. أسـتطردتُ. لماذا ينوحُ الحمام؟ ابتسمت لي مُضيِّقةً عينيها تُفكِّر. أجابت. اسأله! وكلَّما ذهبتُ إلى الحَمَامِ في السَّطحِ أسألُه سببَ نَوحِه، ألجمني سحرُ هديلِه عن السُّؤال.

خرجـتُ مـن المطبـخ الأخـرس. لا أحـد غير قُطنـة يُنصِتُ إلى

شكواي ويُصغي إلى كلماتِ خوفي على أُمِّي ومُقتي لوالدي.

ركضتُ إلى حوشِ الغنم حيث فاتنتي، بنت فايقة، تُقعي أرضًا تكشِفُ عن ساقَيها المنفرجتين. تخلِطُ الحبوبَ في وعاءٍ كبير؛ ذُرة، شعير، حبّات حُمُّص وبذور دوّار الشَّمس. أحملِقُ في تفاصيل جسدِها من وراء الباب الموارب. يدفعُني الفضول لاكتشافِ غير المألوف في جسدي. أغيبُ مع اتِّساع فتحة ثوبِها عند الصَّدر. أُمعِنُ النظرَ أبحثُ عن شاماتٍ أربع تجمَّعت فوق نهدِها الأيسر. أنا أُحِبُّ قُطنة. هي تدري. هي تمنحني شيئًا مما أصبو إليه نظرًا. مُتعة اكتشافِ جديد. تُحب «العبَدة» يا عبد؟! التفتُّ إلى صاحبِ الصَّوتِ ورائي. كان والدي يبتسمُ حانِقًا. مردُّ «العبَدِة» إلى عبدٍ يأويها! راحَ يتظاهر بأنه يعدُّ أوراقًا نقدية بين كفَّيه. ما اشتريتهُما من أجلِ شيءٍ إلا خدمتكما! كانت كلمة عبدٍ مألوفة مثل أي كلمة دارج استخدامها كلَّ يوم، هي سِمَةُ أولئك الذين يشتريهم والدي، كما يقول، بحُرِّ مالِه. غير المألوفِ هو أن يكون هناك عبدٌ جديدٌ، لا أعرفه، ينافسُني حظوة قُطنة، تميلُ إليه، يأخذها بعيدًا. لماذا تصيرُ كُلّ الطُّرُق إلى فراق؟

عاد والدي إلى جزيرتِه قاطِعًا وعدهُ بزيارةٍ في أجلٍ لا يُسميهِ أبدا. قرفصتُ أسفلَ السُّلَّمِ ألوذُ بضيق المكانِ كأنما أقتربُ مني أكثر. تهجِسُ أشياء في صدري. سوف تُشفى أُمِّي، تعودُ أطرافها الأربعة كما كانت، وتبقى قُطنة قريبة دائمًا. ضممتُ ساقَيَّ إلى صدري. أسندتُ جبيني إلى رُكبتَي مُغمَض العينين أهمس بتعويذةِ حمامِ الدَّارِ وأفعاها مثلَ صلاة. أُكرِّرُ القول أُغذي إيماني أتكئ على أوباتٍ أَلِفتُها. عودة والدي زائرًا. استقرار المراكبِ الخشبيةِ تُعانق أرصفة المرسى بعد

رحـلاتِ أسـفارٍ طويلـة. طلـوع الشَّـمسِ تقذِفُها أمواج الشُّـروقِ بعد غيابها في الصَّحراء القصيَّة غربًا. بزوغ نجم سـهيل بشـيرُ المطر كُلّ عـامٍ فـي أوانِـه. عودة أسـراب الطيور المُهاجرة؛ الهُدهُـد والخُضَّيري وأُمّ سـالم والحمَّامـي والرُّمانـي والقَوبع تنثُـر أصواتها وألوانها ربيعًا، تبني أعشاشـها وقتَ تلفظُ الأرضُ كمأها الذي أُحِب. مِزاج الشَّـمسِ حينمـا يليـن وتحنـو علـى الكائنات على غير عـادة، اخضرار الأرض بفعـلِ أوراق الحمبـزان وتفتُّـح بتـلات النُّوَّيـر كأن شُموسًـا صغيـرة تحمِلُها سـيقان دقيقة داكنة الخُضرة تكسِـرُ يبسَ البرِّية. حتى أُمّ علي، دعسـوقتي الحمراء المرقطة، كائني الأثير، لا تُطيلُ غيابًا ولا تتخلَّف عن موعِدِها تصحبُ فراشات الرَّبيعِ، تزورُنا تُكمِلُ ألوانَ لوحةٍ إطارُها قوسُ المطر.

نثَّت هواجسي روائحها المحبَّبة؛ خُزامى، تربةٌ رطبة، أريجٌ عُشبيٌّ وفوحُ لِقاحٍ و.. أزكمت أنفي رائحةٌ أفلتَها جسدي أنستني صورًا غصَّ بها رأسي. رحتُ أضرب الهواء حولي وعيني صوبَ بابِ حوش الغنم خشيةَ مرور قُطنة. هربتُ راكِضًا إلى المطبخ.

منوال

.. اقتـربَ منـوال مـن نافِذتِـه المفتوحةِ مُحترسًـا. اسـتدار ببطءٍ يواجِهُهـا بصـدرِه. كان مؤمنًا بأنها سـوف تحمي صغيرَيها وقد خرجا من البيضتين وتعرَّفت إليهما وألِفتهُما. مدَّ كفَّهُ مبسوطةً بفُتات الخُبز. طارت فيروز. بهتَ الكهلُ. تعالي! ..

«كُلُّ الألوانِ أزرق»

سنوات مضَت على فجيعةِ المرسى، وأنا أكتُب وأكتُب، وأكتُب. لا جدوى. أنا الذي أقنعتُني بالتداوي بالكتابةِ، انصرفتُ عنها، صرتُ أحمِلُ كُرَّاسة الرَّسمِ والألوان إلى ساحِلِ الفقدِ، أمضي أوقاتي أرسمُ ما يُشبِهُني وأرفعُ اللوحاتِ أواجهُ البحر. كُنتما تُحِبَّانِ ما أرسُم. ما بالكما لا تُجيباني. الله! حلوة يُبه. يمرُّ الناسُ مِن حولي، تُراوح ملامِحُهُم بين خوفٍ وشفقة. يهمسُ أحدُهُم لصاحِبَتِه. مِسكين، مجنون. أُخفِضُ ذراعَيَّ أتملَّى في اللوحةِ الزَّرقاء. رؤوسٌ مُزدوجة وعيونٌ جاحِظة وأطرافٌ مبتورة، هذا لا يُشبِه ما كنتُ أرسمهُ للصَّغيرين. هذه رسومٌ مُنفِرةٌ تُشبهني أكثر مما أبدو عليه. أُدير للبحرِ ظهري. يتناهى إليَّ صوتُ منيرة مِن أمسٍ بعيد. اركض. اركض يا جبان! أُطأطئ. حتى الرَّكض لم يعُد مُمكِنًا يا منيرة. سوف أركض، لو أن الرَّكضَ يُفضي إلى مكان!

منوال

.. اقتطع الكهلُ جزءًا من الخيط، عقدَ طرفَهُ في منتصف دبُّوسٍ شالِه قبل أن يحبو نحو دكَّةِ النافِذة. حمَلَ أحدَ الفرخَين في كفِّه يتحقَّق من جنسه.

«الأسماءُ عَتَباتُ الخُلود»

استلقت منيرة على ظهرها في سرير العيادةِ مكشوفةِ البطن. لِحافُها الأبيض يُغطي ساقيها. راحت المُمَرِّضة، التي صارت تعرِفنا

لكثـرة مـا تردَّدنـا علـى العيـادة، تدهنُ بطنها بمـادَّةٍ مُزَلِّقـةٍ أثناء ارتداء الطبيبُ قفَّازًا أزرق يُمسِكُ بجهازٍ بحجم قبضة اليد، يُمرِّرُه على بطنها ببطء. رحنا نُحملِقُ في الشَّاشةِ إلى يسار السَّرير، نتطلَّعُ لمعرِفة جنسِ ما تُخفيه في أحشائِها.

كان مجـيءُ التوأميـن بعد سـنوات انتظـار وتدخلٍ طبِّي ومُلازمة منيـرة السَّـرير بمنزِلـة مكافأةٍ لم نكن نحلـمُ بها، نحن اللذان ما حلمنا بأكثـر مـن مولـود؛ ذكرًا كان أم أُنثى، لا يهم. طفرت الدُّموع من عيني منيـرة وهـي تُعانِقُنـي وقتَ أخبرنا الطبيب أوَّلَ مرَّةٍ بحملِها. لن أتحرَّكَ من فراشي إلى حين ولادتي. قالت وهي تعصرُ كفِّي. غالبتني دموعي وأنـا أُفكِّـر فـي حيـاةٍ مُقبِلة. سـوف أبقى إلـى جانبِ الفـراش وأكون أطرافكِ الأربعة. تحشرج صوتي وأنا أُحدِّثُها وفي خلدي صورة أمي علـى فـراش المـرضِ تلومُ والدي. بترتَ أطرافي! كنتُ أشـعر بعناقي لـ منيرة أني أُعانق عائلةً توشـك أن تكون، مُتحرِّرًا من كلِّ خسـاراتِ عائلةٍ كانت.

منذُ دخول منيرة شـهرها الرَّابع ونحن نتردَّد على العيادةِ لمعرفةِ جنـس التوأميـن مـن دون فائـدة. اتخـذَ كلٌّ منهُما حرفًا على الشَّاشـةِ المغبَّشـة. A وB. سَـرَت قشـعريرةٌ في جسـدي وقتَ أسمعنا الطبيبُ خفـق قلبَيهِمـا فـي المرَّة الأولى. يبدوان فـي صِحَّةٍ جيِّدة. حالَ الحبلُ السِّري دون تيقُّن الطبيب. لعلَّ A ذكرًا، أو رُبَّما ذلك الشيء المُتدلي لا يعدو كونه جزءًا من الحبل السِّري. الأشياء ليست كما تبدو دائمًا. يضحك. يُواصل تحريك جهازِه يُحملِقُ في الشَّاشة. يستحيلُ تحديدُ جنـس *B* وهـو مُطبِـقٌ فخذَيه على شـيئه. خرجنا مـن دون إجابة. لفَّنا

الصَّمتُ في السَّيارةِ ووجيبُ قلبَينا يُحاكي خفقَ الصَّغيرين في رأسَينا. في الزِّيارةِ الثانية استمرَّ B في إخفاءِ عُضوِه بين فخذَيه المُطبقين في حين أدار لنا A ظهره.

كانت تُزعِجُني الإشارة لهما بحرفَين كأنهُما أي شيء، وكنتُ أنتظر بفارغ الصَّبر التعرُّف إلى جِنسَيهِما لأستعيض بالاسم عن الحرف. في زيارتنا الثالثةِ للعيادةِ صارَ الأمرُ أكثر وضوحًا. ضحِكَ الطبيبُ يُشير إلى ما بين فخذَي أحدهما. ذكر كما هو واضح. التفتت إليَّ منيرة باسِمة وقد تخضَّلت عيناها واحمرَّ أنفُها. رحتُ بنظري أُمعِنُ التحديقَ في الشَّاشة. همستُ. رحَّال! قرَّبَ الطبيبُ سبَّابته إلى ما بين فخذَي الجنين الثاني. التفتَ إلينا يسأل كمن يُجيب. واضح؟ زمَّت منيرة شفتيها وقد ازداد أنفُها احمرارًا. غطَّت وجهها بكفَّيها تنخرطُ في بكاء. ابتسمَ الطبيبُ في حيرةٍ عاقِدًا حاجِبَيه يسألُها عن حالِها وقد علِمَت بما كانت تجهل. كيفَ أنتِ الآن؟ أجابتهُ. زينة. لمعت الكلمة في رأسي واستطعمت لفظها وأنا أقول: الولد رحَّال، والبنت..

منوال

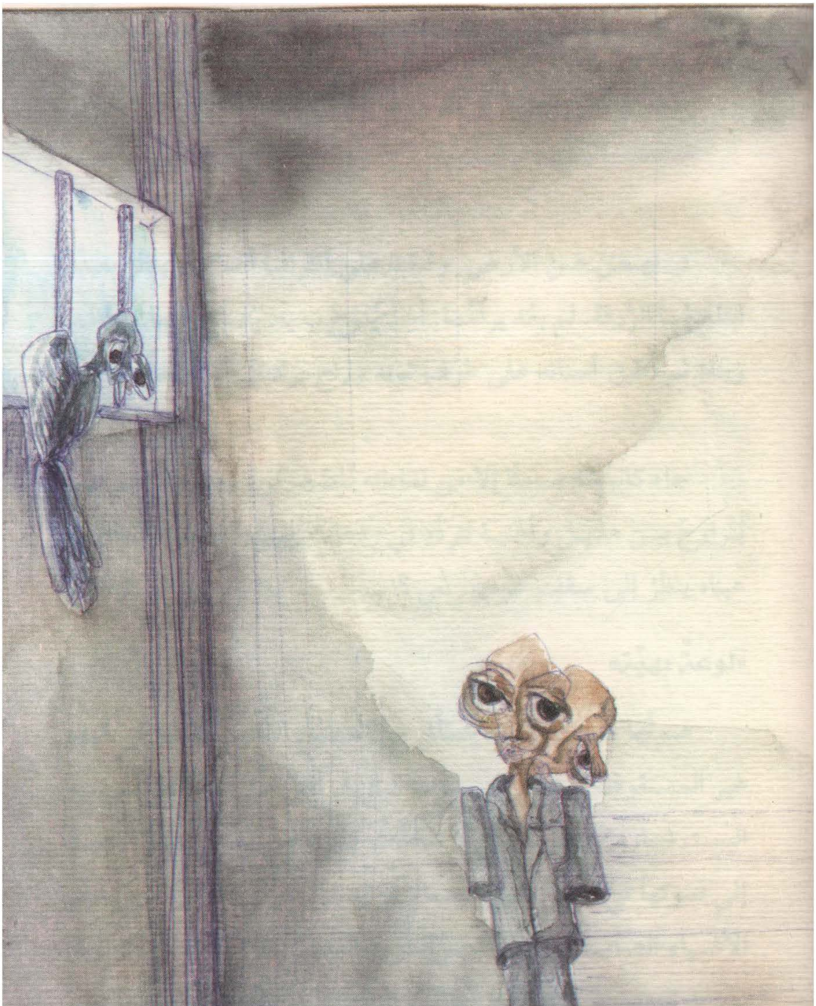
زينة.. زينة! ردَّدَ منوال وهو ينشج.

..

.. تسمَّرَ أمام مِرآتِه. أفزعته صورته على وجهِها وهو يُحدِّقُ فيها. من أنتَ؟! ها؟! أطالَ النظرَ في انعكاسِه. بشرتُه شاحِبةٌ داكِنة وهالات سوداء تحيط عينيه الحمراوين بلونِ الدَّم، وشعيراتٍ رماديَّةٌ طالتَ في

ذقنِه. رفعَ كتِفَيه نافِخًا صدرَهُ عاقِدًا حاجِبيه. أطبقَ جفنيه، ثُمَّ باعدَ بين ذِراعَيه يضرِبُ بهما الهواء كأنه يُحلِّقُ مُبتسِمًا. صارَ يذرُع الحمَّام يدورُ مُغمِضًا عينيه. حمامُ الدَّار لا يغيب.. لا يغيبُ يا أزرق.. غرووووغ!

* * *



صباحٌ رابع

«..نهـضَ عـن الأرضِ. وقـفَ على أطرافِ أصابعِـه ينظرُ بعيدًا. ابتلعتهُما الزُّرقة. لم يعُد يراهُما. أخذَ يُلوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رحَّال.. زينة! ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

جاء كابوسُه صامِتًا إلا من نداءاتِه للصَّغيرَين، وصوتُ نغمٍ قديمٍ يُـراوحُ بيـن هديـلٍ وأغنيـة تتردَّد في ردهات البيت القديم. شَـخَصت عيناه ينظرُ إلى سقفِ غرفتِه. أمي ؟! ..

«لوعةٌ بهيَّة»

صوتُها شجيٌّ عذب. يتسلَّل من المطبخ القديم. ينتشر في البهو غير المسـقوف يُصافِح النسـمات البارِدة. أطلُّ من السَّـطح على بهو البيـت شـارِد الذِّهـن. أمـي لا تتحدَّث كثيرًا. أمي تُغنِّـي دائِمًا. أُنصِتُ إلى صوتها في حين هديل الحمامِ يتزايد من حولي. أُمرِّرُ نظري على الأشـياءِ الصامِتة في بهوِ البيتِ العربيِّ القديم. جرَّة الماءِ في الزاوية. بسـاط الحصيـر. الصـورة العائليـة الناقصـة في الجـدار. صندوق من خشـبِ الصَّاج مُطعَّمٌ بمسـامير ونقوشٍ ذهبية يسـتريحُ فوقه وِعاءان؛ لِدِبـسِ التَّمـرِ أحدهمـا والآخـر للخَلّ. سـجَّادة وثوب صلاة. مسـانِد صوفيَّـة ومنقلـة فحـمٍ وقِدرٌ معدنية، وبئر مجنونـة تمنحُ ماءً عذبًا متى ما اشتهت وماءً مالحًا إن تعكَّر مِزاجُها.

كلُّ الأشياءِ صامِتةٌ في البهو تُنصِتُ إلى غناء أمي. أغمضتُ عينيَّ أُمعن الإصغاء:

لـو رجـع مضنونـي، نـذرًا عليَّ، لو رجـع مضنوني
ثُـمَّ أُعَيِّـد شـهرا، وأصـوم عامَيـن، ثُـمَّ أُعَيِّـد شـهرا
نحـت أنـا لـو أبرا، نـوح الحمامة، نحت أنـا لو أبرا

لم أعُد أسـأل نفسـي ماذا تقول الأغنية؟ لماذا تنوحُ أمِّي؟ لعلَّها تبرأ من ماذا؟ ومِمَّ ملَّ قلبُها الذي لم يعُد يطيق صبرًا؟ كنتُ أُصغي إلى الصوتِ وحسب. غناءُ أمي يُشبه بكاءً شجيًّا. فتحتُ عَينَيَّ. التفتُّ إلى الحَمَامات المنتشِـرةِ في السَّـطح. لماذا تُغني أمي دائِمًا؟ مرَّت واحدةٌ من فوقي تُلقي إجابتها: اسألها! مضيتُ أُسرِعُ الخُطى نحوَ السُّلَّم.

منوال

.. اسـتدار يُطلُّ بنصفِ وجهِه. يُطيل النظر إلى فيروز المنشـغلة عنايةً بصَغيرَيها. الأُمومة أمرٌ عظيم. ولكن! لماذا تخافُ الأُمهات؟ أنا أكره الخوف. هو لا يتذكَّر من أُمِّه إلا صوتها؛ غناءً أو خوفًا..

«الغناءُ زادُ الرُّوحِ في الأيام الحزينة»

وقفتُ عند باب المطبخ أحملُ سؤالًا حمَّلتني إياهُ الحمامةُ لأُمِّي. لماذا تُغنِّينَ دائِمًا؟ همَمتُ أتجاوز عتبة البابِ دخولًا لولا خِشيَتي من أن أقطـع غنـاءً أُحِبُّـه. أجَّلتُ سـؤالي. رحتُ أُصغـي. أُمعِنُ النظرَ في تفاصيل أُمِّي مُنفرِجة السَّاقَين أمام الثيابِ المنقوعةِ في طستِ الغسيل. ترفـعُ صينيـةً نُحاسِـيَّة، كأنمـا تمسِـكُ دفًّا، تضربُ على ظهـرِ الصينيَّةِ

بإيقاعٍ منتظم. بدَت في عالمٍ آخر بعيد. ثوبها واسِعٌ دائِمًا أسود، يرتفعُ إلى منتصفِ ساقَيها الملطَّخَتين بالرغوة. شعرها مفروقٌ في منتصفِ رأسِها. جِديلَتاها طويلتان تنتهيان عند خاصِرتها. أغيبُ في ملامِحِها؛ دِقَّة أنفها، غمَّازة خدِّها الأيمن وقتَ تبتسِم، اتساع جبينِها وانحناءة حاجِبَيها. تتمايل بجذعِها كالغائبة عن وعيِها، مُغمِضةً عَينَيها، تهزُّ رأسها تجاوبًا مع ضرباتها على الصينية ولحن أغنيتها الشَّجي. تُغني كأنما تنثُر سِحرًا في المكان الموغِلِ صمتًا يُصغي إلى غناءِ المرأةِ الحزينة. كيف للحُزنِ أن يتَّخِذَ من الجَمالِ ثَوبًا على هذا النحو من السِّحر؟! وكيف للحزنِ إياه أن يُسقِط أُمِّي، بعد ذلك، طريحة الفراش؟

عبِّروا مضنوني، يا أهل المراكِب، عبِّروا مضنوني
يا نظير عيوني، ودَّعتك الله، يا نظير عيوني

انصرفتُ عن فكرةِ السُّؤال عن سببِ غنائها، ما دامت الإجابة عند أهل المراكِب. انبثق في رأسي سؤالٌ آخر. هل يعبر إخوتي البحرَ عودةً مع أهلِ المراكِب في الأغنية؟ أحسَستُ بحاجةٍ مُلِحَّةٍ للحديث، لكنني لا أنوي قطع غِناء أمِّي التي بدَت لي كأنَّها تُمارِسُ طقس عبادة. لا أحد يُبادِلني الكلام في البيتِ القديم. أدرتُ ظهري لأُمِّي الغائبة في مطبخِها. ردَّدتُ في سِرِّي: قُطنة.

منوال

.. عيناه مفتوحتان على البعيد لكنه ينظرُ إلى ما يومِضُ في رأسِه؛ سفينة عملاقة توليه مؤخِّرتها تمضي مُبحِرةً عند تلاقي الزُّرقَتين..

«فتقٌ ﴿ ثوبِ حقيقةٍ ورُقعةُ كَذِب»

أشتاقُ إلى الألوان في ثيابِ أُمِّي. مسحت ابنةَ فايقة على رأسي وهي تُنصِت إلى بوحي. مضى وقتٌ طويلٌ وأُمِّي تلبسُ السَّواد ولا تحلُّ جَديلَتَيها، تنوحُ مثل الحمامةِ في أُغنيتها وتتحرَّى خبرًا معَ أهلِ المراكِب التي تعودُ في كُلِّ مرَّةٍ من دونهم. نظرَت قُطنة إلى عينيَّ صامِتة. متى توقفُ أُمِّي غناءها الحزين وترتدي الألوانَ ثانيةً؟ قُطنة لم تزَل تنظرُ إليَّ، لكن بشيء مِن حُزن. هربتُ بنظري عن نظرتها مُطرِقًا. أمسكتُ بعودِ برسيم يابِس. رحتُ أرسمُ خطوطًا في التُراب بين قدَميّ. منوال! لن تعود أُمّك كما كانت إلا بعودةِ إخوتكَ! اغرورقت عينايَّ. وهَل يعودون؟ نهضتْ تنفُضُ الغبار وأعوادَ البرسيم من ثوبِها. ألستَ تقول إن حمَّام الدَّارِ لا.. لم أُمهِلها تُكمِل. أنا لا أقول! قطَّبَت حاجِبَيها تستفهم. أشرتُ إلى صدري. شيء هُنا يقول. أسئلتي لا تكفُّ حركتها في رأسي. لماذا غادر بهم أبي؟ تخصَّرت وهي تنظر إليَّ مُشفِقة. أبوك؟! اندفعتُ أُلقي بسؤالٍ آخر. لماذا لم يأخذني معه؟ أطلقت زفرةً طويلة أعقبتها بـ: بقاؤك مع أزرق مُرٌّ، وطردك أمام الناس أشدُّ مرارة! لم تُمهلني أفوه بكلمة. أولتني قُطنة ظهرها مُبتعِدةً. رحتُ أُحدِّقُ فيها وهي تتمايل شارِد الذّهن.

منوال

.. ارتمى بظهره على سريره وأطالَ النظر في السَّقف. لماذا أنتَ صامِتٌ هكذا؟ ها؟ أنت تعرفُ كلَّ شيء.. كلَّ شيء. أغمضَ عينيه.

«اسمُها فيروز»

فتحتُ عينيَّ بصعوبةٍ بسبب جنون الغبار. أخذني والدي معه إلى المقبـرة فـورَ عودتِه من الجزيـرةِ مُضطربًا. أخوالكَ ينتظرون. من الذي مات؟ لم أسأل. أحكمَ والِدي لِثام وجهِه. حثَّ خُطاه نحو رجالٍ يمضونَ نحـو وجهـةٍ مُسـرعين. كنـت أدري أنـه يومٌ صعـب مُذ أخبرتنـي بئرُنا المجنونـةِ بِملحِهـا فجـرًا. أين إخوتي ؟ سـألته. يقطعون البحرَ عائدين، سـوف يلحقـون بنـا. أجـابِ مـن وراءِ لِثامِه. سـألته. ألن نـزور أُمِّي في المستشفى ؟لم يُحِر جوابًا. الصَّحراءُ ساكِتة إلا من صفيرِ الرِّيح وعزيفِ الرِّمال وحفيفِ أشجار السِّدر المنتصبةِ بين شواهِد القبور. وقفتُ أفركُ عينـيَّ الحمراويـن وطعـمُ الغبارِ في شـفتَيّ. تخلَّفتُ عن الجمعِ أمامي. الرجـال يحمِلونَ نعشًـا، يخوضون فـي الغُبار، يمضون نحوَ تلٍّ صغير. بالـكاد أُميِّـزُ والـدي مِـن بينهم، بنحولِهِ وطول قامتِه، رغـم لِثامِه. أنزلوا النعـشَ قـربَ حُفـرةٍ وراء التـلِّ. أدرتُ ظهـري إلـى الجنـازة أنظـرُ إلى السَّماء. قيل لي إن مَن يموت يمضي صعودًا إلى الزُّرقةِ هناك. من قال لي ذلك؟! لا أدري كم مكثتُ في شرودِي حتى نبَّهني أحدهم مُناديًا: يا ولد! مضيتُ نحو الرِّجال. راحَ بعضُهم يُفرِغُ دلاءَ ماءٍ على التَّلِّ الرَّملي. كنتُ صغيرًا، وهي مرَّتي الأولى في المقبرة. أنظرُ إلى أحشاء القبرِ وقد صارت تلًّا. قريبًا يعود ثانيةً إلى الأسـفلِ ويُسَـوَّى سـطحُ القبر بالأرض وينتهي كلُّ شيء. انحنى رجلان يخلِطانِ الماء بالتُّراب، يعجِنان الطِّينَ، يصنعان كرياتٍ يُناولانها والِدي في الأسفل يرُصُّها حولَ جسدِ ساكنةِ القبر. مدَّ أحدُهُم عصا المِسحاةِ إليه يعاونه على الصُّعود ما إن فرغ من عملِه. أحدُ الرجالِ يُثبِّتُ ورقةَ كرتون تحمِلُ كلماتٍ كنتُ أصغرَ من أن

أفقه حروفها. الورقة الكرتونية بعد ساعاتٍ صارت شاهِدًا رخاميًّا وقتَ عدتُ مع والدي إلى المقبرة. كان يحملُ الشاهِدَ الرُّخامي يمضي بين القبور مُتلَثِّمًا. أبطأَ خطوَهُ قبل أن يتوقف على مبعدةٍ أمتار من القبر وأنا أطأطئُ وراءه. دفعني توقفهُ المفاجئ لأن أرفع رأسي أتطلَّع لما يجري. الغُبار يلفُّ كُلَّ شيء. بالكاد أُميِّز ثلاثة رجال ملثمين وامرأة ترتدي السوادَ تُغطي وجهها بجزءٍ من عباءتِها، يُقعون حولَ القبرِ في صمت. مضى والدي صوبَ الأربعة. أزالَ ورقةَ الكرتون، انحنى يثبِّتُ الشاهِدَ الرخاميّ مكانها في التراب، وكأنهم غير موجودين. اكتفى يهمسُ وسط انشغالِه: تأخرتم! تأخرتم كثيرًا! أفلتَ الرِّجالُ شهقاتٍ يعاندون بها بكاءً في حين خارت المرأةُ في نشيجٍ مرير. نهضَ أحدُ الفتية، يبدو الأكبر، يُصفِقُ كفَّيهِ يُزيل غبار القبر العالِق فيهما. أومأ للشابَّين والفتاة قبل أن ينصرف. تبعهُ الثلاثةُ مُطرقين. جعلتُ أُراوحَ نظري بينهم وبين والدي وقد تأكد لي من يكونون، ولكنني سألت: من يكونون؟ أجابني بغير اكتراثٍ وقد فرغَ من تثبيت شاهِد القبر: حمام الدَّار.

كنتُ أُطبِقُ قبضتي الصَّغيرةَ على ثوبِ والدي أثناء عودتنا وأسأله عن الحروف السَّوداء على صدرِ الشاهِد الرخامي. أجابني بآياتٍ من القرآن الكريم وهو يواصل المشي بين القبور: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. أمسكَ لسانَهُ عن بقية حروفٍ نُقِشَت أسفل الآية. أحكمتُ اطباقَ كفِّي على ثوبِه وأنا أشدُّه. ماذا بعد؟ أسرعَ مشيته وهو يُفضي كأنما يهربُ مني: فيروز ماضي حمدان. سقطتُ على ظهري أُغمِضُ عينيَّ على زُرقةِ السَّماء المغبِرة.

منوال

.. بسطَ كفَّهُ أمام وجهِهِ كاشفًا عن حبوب الشَّعير. أخذ يتشمَّمُها بنفَسٍ عميق. سَرَت رعشةٌ في جسدِه. نظرَ إلى صورتِه في المرآة يتحقَّق من كونِه هوَ. العروق الحمراء تنتشر في عينيه الشَّهلاوين. بدا لنفسِهِ شخصًا آخر. انحنى على كفِّه المبسوطةِ ثانيةً يلتهِمُ الشَّعيرَ. يعاودُ النظرَ في المرآةِ وهو يطحن الحبوبَ بين أسنانِه وعيناهُ بلونِ الدَّم. غرووغ.. غرووغ!

* * *



صباحُ خامِس

«.. اصفرَّ وجهُهُ وهو ينظرُ إلى غيابِهما الوشيك. أرادَ أن يمضي وراءهما في التِّيه الأزرق لعلَّهُ يُعيدهما إلى حُضنِه. نهضَ عن الأرضِ. وقفَ على أطرافِ أصابعِه ينظرُ بعيدًا. ابتلعتهُما الزُّرقة. لم يعُد يراهُما. أخذَ يُلوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رحَّال.. زينة! ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

.. فتحَ عينيهِ عن آخرِهما.

.. كأنــه انتبــه لتــوِّه إلــى صمتِ أيامِه، عزلته في وحشــةِ المكان. مرَّرَ كفَّهُ على المساحةِ الفارغةِ من سريرِه البارد. وضع كفَّهُ الأُخرى تحت منامتِه الرَّمادية يُمرِّرُها على جسدِه.

.. مــالَ علــى جانِبِــه يُمسِــكُ بالهاتف. لم يعبث بــأزرارِه يُهاتِفُ طليقته. بدا شــاردَ الذهنِ يُحملِقُ في السَّــماعة. أعادها إلى موضِعِها ثم راح يحدِّقُ في شرخ سقفِه.

«ويصيرُ الصَّمتُ جوابًا»

في الثالِثةِ عشرة كنت، أو الرابِعةِ عشرة ربما، أمضيتُ وقتًا طويلًا في حوشِ الغنم، مُندسًّا تحتَ لوحٍ من الصَّفيحِ أحطتُه بألواحٍ خشبيةٍ كنتُ قد شيَّدتُهُ مكانًا سِرِّيًا، في غفلةٍ من عمَّتي التي تركت بيت عمِّي وانتقلــت للعيــش معــي في بيتنا بعد وفــاة أُمي. لعلَّها تدري بما يجري

وتغض الطرفَ عن انتياصي في الحَوشِ ساعاتِ الظهيرةِ كلَّ يوم. تضمُّ ابنةَ فايقة ساقَيها إلى صدرِها إلى جواري تُنصِتُ إلى أسئلتي. أصحيحٌ ما يقوله والدي. قاطعتني بنصفِ ابتسامةٍ تستوضح. مردُّ «العبدةِ»؟ أطرقتُ مُبتلِعًا إجابتي، أنظر إلى أخمصَي قدَمَيها الملطختين بالحِنَّاء. أزرق يعرف أن العبيد لا يستقرون في مكان، يباعون ويُشترون مثل أيِّ شيء. كان بيتكم يغصُّ بالعبيد الذين يتاجر بهم، رجالًا ونساء. أطرقتُ. صحيح، أتذكرهم فيما يُشبه حُلمًا، صامتين، طردهم والدي من البيت، ولكن لماذا؟ أشاحت بوجهها صوبَ الباب المؤدي إلى البهو وقالت. كان غاضبًا على أحدهم، لا أظنك تتذكَّره، طويلٌ أشهل العينين أصلع أسمر. خالفه في أمرٍ ما رُبَّما، طرده وألحق به البقية. سألتها. وما شأن البقية؟ لزَمَت صمتها قبل أن تقول. أزرق لم يعُد يُحبُّهم. زفَّرتُ بضيق. والدي لا يُحبُّ أحدًا! ابتسمت زامَّةً شفتيها بأسف وهي تهزُّ رأسها. أزرق يُحبُّ أمَّكَ عِرزال. نظرتُ إلى شفتيها ساهِمًا وقد كستهُما صبغةٌ بُنِّيةٌ تُناوِشُ احمرارًا. كيف اكتسبتا هذا اللون؟ ابتسمت كاشِفةً عن أسنانٍ بيضاء ثلجية. تدُسُّ كفَّها بين نهدَيها. أُطيلُ النظر في شاماتِها الأربع فوق نهدِها الأيسر. يُداهِمُني اضطرابي. تمدُّ لي كفَّها المُحنَّاة بقِطعةٍ نسيجيةٍ صغيرةٍ من الدَّيْرَم، لِحاء شجرة الجوزِ الهندية. تفحَّصتُها. تُشبِهُ القرفة! هزَّت رأسها. ليست قرفة. رحتُ أُقلِّبُها في كفِّي. يُمكِنُكَ أن تحتفظَ بها، قالت باسِمة. تشمَّمتُ رائحتها. أخفيتُها في قبضةِ يدي. كيفَ هُوَ طعمُها؟ بهتت ابتسامتُها تنظرُ إليّ. تذَوَّقهُ، قالت وهي تمعنُ النظر في عيني. أدنَت وجهها إلى وجهي. تسارعَت دقَّات قلبي فيما كنتُ أنظرُ إلى

شفتَيها الدَّاكِنتَين تقتربان. نفحَت رائحة الريحان في ثيابها. لم أُغمِض عينَيَّ كما فعلَتْ إنما فتحتُ عينَيَّ على وِسعِهِما. أحببتُ ما تذوَّقت؛ دَيْرمًا كان أم شيئًا آخر.

ابتعدَت بصَدرِها إلى الوراء. التفتت إلى ثياب فايقة على حَبل الغسيل. جفَّت ثيابُ أُمي، لعلَّها تأتي في أي وقت.

منوال

.. أيامٌ قليلة وتطيران.. زينة.. رحَّال.. عِداني بأنكُما لن تُطيلا الغياب.

.. هرعَ إلى النافِذةِ مُسرعًا هذه المرَّة. طارَت فيروز. هُمَ الصَّغيران يتبعانها. يقِفان على حافةِ الدكَّة بقوائِمِهما الحمراء، يُصفِقان أجنحتهُما من دون أن تتزحزح أقدامُهُما قيدَ إصبع. يجفلان. .. أنا منوال.. ومنوال لا يُخيفُ أحدًا.. منوال ليسَ أزرق!

«طلقة في صدرِ قُطنة»

كان ضُحى العيد. والعيدُ، كلُّ عيدٍ، بهجةٌ قبل عيدُنا ذاك. ما صارَ للعيدِ مذاقٌ حُلو مُذ صار ذكرى سنوية لحدثٍ أكرهُه. أكرهُني، يومَ اجتمع في بَهو البيتِ أفرادُ عائلتنا الكبيرة المُتشظية في كُلِّ مكان. أعمامي وزوجاتهم وأبناؤهم. لم يكُن في البيت إلا عمَّتي وفايقة وابنتها وأنا بطبيعةِ الحال. عاد والدي، مِن دونِ إخوتي، من الجزيرةِ صباحًا ليستقبل إخوتهُ وأخواتِه وأبناءهم. اندسَّ قبل مجيء الزُّوار في حوشِ الغنمِ لنصفِ ساعةٍ قبل أن يخرُج مُتعرِّقًا يسألُ عمَّتي أن تُجهِّزَ لهُ حمَّامًا ساخِنًا.

تكدَّسَ أبناء عمومتي من الأطفالِ في إحدى زوايا البهو، مُقرفصين فـي ثيـابِ العيـد، يعُـدُّون أوراقًا نقديةً، يتباهـى واحِدُهُم بحصيلتِه من مـالٍ حظـيَ بـه من الأقاربِ والجيران. امتدَّت جلسـةُ الأهلِ ما يُقارِب السَّـاعتين أمضيتُهـا صامِتًـا. حمَلَـت فايقة زُجاجة دِهـنِ العُودِ في يد، ومبخـرًا يتصاعـدُ مِنـهُ دُخان البخور في يدٍ أخرى، تطوفُ مُنحنيةً على زُوَّارِنـا. التفـتَ عمِّـي الأكبر إلى إخوتِه مُفلِتًا ضحكةً مُجلجلةً أسـفلَ شـارِبِه الأبيـض، يُقـرِّبُ بكَفِّهِ دُخان البخورِ إلـى وجهِه وهو يقول. ما بعد العُود قعود! تضاحك الجميع إزاء إعلان انتهاء الزيارة وقتَ حرقِ البخور. لملمَت عمَّاتي عباءاتهنَّ قبل أن يصيحَ بِهم والدي ضاحِكًا. اقعـدوا! اقعـدوا! أشـارَ بيدِه صوبَ المسـجِدِ القريب. لـم يؤذِّن الظهر بعد! صاحَ بـ قُطنة المكسورةِ في المطبخ منذُ الصباح. العصير يا بنت!

ظهرت قُطنة بثوبٍ لا يُشبِهُ العيد. مُطأطِئةً تحمِلُ كؤوس العصيرِ تغُصُّ رموشُها بالكُحلِ سائلًا. مضَتْ ثقيلة الخُطى تطوفُ على الزُّوار مُنحنيـةً. دعانـي والـدي لأن أقتربَ منه. ربَّتَ على المقعد إلى جوارِه. جلسـتُ مُنكمِشًـا. أمسـكَ بِكَتِفَـي يهمِـسُ فـي أُذُني بما يُشـبِهُ فحيحًا تُخالِطُه رائحة التَّبغ. صِح بالفتاة: «يالعبدة»!

لا اتِّسـاع عينيَّ ولا ارتعاشـات جسـدي أنجدتني من تلبية رغبةِ والدي المريضة. قرصَ زندي كأنما يهمُّ بانتزاعِ قطعة من لحمي. صِح بها! أخذ يتهجَّى الحروفَ هامِسًا في أُذُني: «يالـ عبَـ ـدة!».

نضحَ جسدي عرقًا غزيرًا وأنا أُراقِبُ قُطنة مُنحنيةً تطوفُ بكؤوس العصير لا تزال. لم أقوَ صبرًا على احتمال الوجعِ في زندي. تحرَّرتُ مِنهُ وقتَ صرختُ متوجِّعًا بابنة فايقة. يالـ «عبدة»!

كأنمـا أُصِبـتُ بصَمـمٍ علـى نحوٍ مُفاجئ. خـرَسٌ هبطَ على بهو البيـتِ شَـلَّ أَلسِـنةَ الحضـورِ الـذي صـارَ واحِدُهُـم ينظُـرُ إلـى الآخر مُستفهِمًا. لم أجرؤ على القول، والدي هو الذي فعل، أُقسِـمُ أنه هو، لكن الكلمة خرجت من فمي وكُلُّ زوَّار العيد يشهدون. لن أنسى وجه قُطنة وقتَ انهمرَ الكُحلُ سـخيًّا على وجنَتَيها، تنظرُ إليَّ زامَّةً شـفتيها لِئلا تُفلِتَ عبرة بكاء يفضحُ انكِسـارها صُبحًا. لن أنسـى وجه عمَّتي تنظرُ إليَّ صامِتةً تتفهَّم ولا تفهم. لن أنسى اعترافًا أوَّل من والدي وهو يخلعُ عليَّ رضاهُ هامِسًا: رجل!

لن أنسى نسياني لما حدثَ بين صرختي بِـ قُطنة واستيقاظي من نومٍ لا أتذكر كيف بدأ أسـفلَ السُّـلَّم. أيقظني جفافُ ريقي. حسِـبتُ ما جرى ليس إلا حُلمًا لولا رائحة البخورِ في بهو البيتِ تؤكِّدُ لي. لم يكُن حُلمًا!

منوال

.. يعقِدُ حاجبَيهِ يُضيِّقُ عينيه كأنما يبحثُ عن شـيءٍ وراء البُخار الـمُنبَعـثِ مـن المـاءِ المغلي. غطَّسَ كفَّـهُ اليُمنى في القِدر وهو يصيحُ بالصَّغيرَين. زينة.. رحَّاااال! أخرجَ كفَّهُ مُلتهِبَةً ثم راحَ يركضُ كالمجنون.

«صمتٌ على صمت»

ركضتُ إلى حَوشِ الغنمِ ورائحة بخورِ البهو تُزكِمُ أنفي. رائحةٌ مُحبَّبـةٌ كانـت، مقيتـة صـارت على نحوٍ لا أطيقه. وقفتُ لاهِثًا وسـطَ الحَـوشِ أصيـح. قُطنـة.. قُطنة! ثيابُ فايقة مُعلَّقةٌ على حبلِ الغسـيل. ثيابُ قُطنة لا. بحثتُ عنها في بيتِ الصَّفيحِ والخَشَب، الحمَّامِ الصَّغير

وكلِّ مكان. لا أثرَ إلا لقِطعَةِ دَيْرَم تُشبه التي أحتفظُ بها، عثرتُ عليها بين البرسيم اليابس إلى جوارِ مكانِها على دكَّة الغسيل، غير تلك القِطعة النسيجيةِ لا شيء! كأنما الفتاة لم تمُرَّ مِن هُنا ولم تخُطَّ ذكرياتها في هذا البيت قط! هَجِستُ بقولِ والدي. مردُّ «العبدِة» إلى عبدٍ يأويها! أجبتُني. كَذِب! صفعتني حقيقةُ أن لا مُسَوِّغ لبقاء قُطنتي في بيتنا. أنا لا أفهم كيف يُتاجر والدي فيما يكره! نالَ بُغيَتَهُ اليومَ مرَّتين؛ كسَرَها في حوشِ الغنمِ صباحًا، وفي بهو البيتِ أمامَ الضيوفِ قُبيل الظهر. قُطنة العبدة، ما الذي يُجبِرُها على البقاء؟!

ضممتُ ساقَي إلى صدري وأسندتُ جبيني بين رُكبَتَي مؤمنًا برحيلِ ابنة فايقة. لا بأس، إيماني برحيلِها لا يعني كُفري بعودتِها. رحتُ، كأنما أصلِّي، أُرَدِّدُ. حَمَامُ الدَّار لا يغيب. حَمَامُ الدَّارِ لا يغيب. أحاولُ استفزاز صوتٍ ألِفتهُ ساعات ضعفي. ساعةٌ مضت. أكثر رُبَّما. شددتُ ذراعَيَّ حولَ ساقَيَّ أتكوَّرُ على ذاتي أكثر، أُرَدِّدُ تعويذاتِ حمامِ الدَّارِ وأفعاها. أرهِف سمعي أتحرَّى هاتِفًا مألوفًا.

منوال

أفلتَ صُراخًا، وهو يركُض كالمجنون.. قرَّبَ كفَّهُ الملتهِبة إلى وجهِه وقد تغضَّن جِلدُها وتورَّمَ واحمرَّ.. دسَّ كفَّهُ في كيسِ الثلج وأغمضَ عينيه.. جلسَ على رُكبتَيه. مالَ برأسِه يُدنيه إلى سَيلِ الثَّلجِ على الأرض. أحاط فمه بكفَّيه وهو يهمِس. رَحَّال.. زينة.. أنا.. أنا آسِف.

«ضجيجُ الصَّمت»

صمتٌ لا قِبَلَ لي بِه. ما بالُ هاتِفي نائمٌ على يأسي لا ينطِق بما

أُحِب؟ ماذا يعني رحيل قُطنة؟ واحِدةٌ مِن أهلِ الدَّار كانت وينبغي أن تعود. رحتُ أُعَدِّدُ على أصابِعي حماماتٍ أعرفُها. أُمي، الحمامةُ الأُم التي غابت مكلومةً بغيابِ حماماتِها على غير موعد لقاء. الحمامات الأربع اللاتي لم يعُدنَ مُذ رحيلهنَّ إلا عوداتٍ منقوصةٍ لا تُطفئ ظمأ اشتياق. ما عادَ الصَّوتُ حاضرًا. ولم تعُد تعويذات حمامِ الدَّار وأفعاها تُجدي نفعًا. سقطَ شيءٌ في داخلي. رفعتُ جبيني عن رُكبَتَي أتلفَّتُ حولي تنهشُني الريبةُ والصَّمت.

منوال

.. قصعةٌ خزفيةٌ وقعت من الخِزانة وتهشَّمَت. تجاهلها. تناولَ بندقيـة صيـدٍ هوائية. مسـحَ عنهـا الغُبار بِكُمٍّ منامتِه. طوى سَبطانتها. نفـخَ فيهـا. ألقمَهـا طلقةً ثـمَّ هرعَ إلى غرفةِ نومِه.. هـذه الحمامة غير جديرةٍ بالحياة!

«حمامُ الدَّارِ يغيب»

كنتُ مؤمنًا بوجود ذلك الصَّوت، أردتهُ أن يكون موجودًا وقتَ أوشِكُ أن أفقد أملًا. صوتٌ هُنا في هذا الصَّدر، رَطِبٌ يُلين صلابةَ صمتِ اليقينِ في رأسي. غابَ إخوتي، غابت أُمِّي، وبقيَ الهاتِفُ على قيد موتٍ مؤجَّل، جاءَ أجَلُه يومَ فقد قُطنة. ماتَ الصَّوتُ في داخلي. ذهبَ مثلما جاءَ هادئًا ساكِنًا. ذلك الذي لم أتيقَّن وجوده، رغم أنه موجود مثل شيءٍ أكيد، كان وقتَ غيابِ إخوتي وأُمي يبُثُّني إيمانًا بعودةِ الغائب، وغابَ هو الآخر حامِلًا معهُ وعودًا كاذبةً يومَ رحيلِ قُطنة. حمامُ الدَّار قد يغيب، وأفعى الدَّار قد تخون. ما كنتُ لأنتبه إلى

موتِ إيماني الذي لم يكُن إلا رغبةً مُلِحَّة لمستحيلٍ لولا الصَّمت الذي احتلَّني على نحوٍ مُفاجئ. ما الذي كنت أتحرَّى سماعَهُ؟ رحتُ أُمعِنُ التفكير. لا شيء! حاولتُ أن أتشبَّثَ بخيطٍ دقيقٍ سرعان ما انقطع. ذلك الهاتفُ القديم الذي كان يُردِّد..! لذتُ بصمتي أسألُني. يُردِّدُ ماذا؟! كان الهاتِفُ يمُدُّني بكلماتٍ لا أتذكَّرُها. سألتني أخيرًا.

أيُّ هاتِف؟!

منوال

.. أزاحَ قَدَميه ببطءٍ إلى حافَّة الدَّكَّة. ألصقَ ساقَيه ببعضهما. بقي ساعاتٍ على حالِه تلك..

ثُمَّ..

حطَّت زينة الجديدة على سعفةِ النخلةِ القريبة ثانيةً في حين لا أثر لـ رحَّال الذي غيَّبتهُ الزُّرقة.. انسحبَ بهدوءٍ إلى غُرفةِ مكتبِه قبل الغروب. أسندَ رزمة أوراق على سطحِ المكتب، خطَّ عنوانًا لأوَّلِ فصل: صباحٌ أوَّل، ثُمَّ غاب في كتابتِه إلى حين أذان الفجر. تنبَّه مِن غفلتِه. نظرَ غير مُصدِّق إلى ساعة الحائط، ثُمَّ إلى القلم بين أصابعه الملتهبة. وضعَ فوقَ المخطوط النَّاقص ورقةً بيضاء صقيلة، وراحَ يخطُّ في زاويتِها: نصٌّ لقيط.

غاب في المطبخِ يُعِدُ قهوته، ثُمَّ أقفلَ إلى مكتبِه يكتبُ مُقدِّمةً لنصِّه الأُحجية:

«إلى هُنا يكفي هذا الهُراء!»..



الصَّباح السَّادِس

«استيقظَ مذعورًا إثرَ صوتِ ارتطامٍ قريب. فتحَ عينًا واحِدةً ينظرُ ناحيـة الصَّـوت وقـد احتـلَّ النُّور غرفتـه فجأة. ألفى توأميـه في ثيابِ البحـرِ وعَوَّامـات الأكتـاف، ينظُـران إليه وَجلَين عند النافِذةِ والسِّـتارة بيـن أقدامِهِمـا علـى الأرض. صاحَ بهما مُعنِّفًا. انتفضا. هو يقول هيَ. هـيَ تقـول هُـوَ. جلسَ على حافةِ السَّـرير يدعكُ عينيـه. دخلت منيرة باسِـمة. لم يقصِدا إسـقاط السِّـتارة. دفعهُما الحماس. أرادا إيقاظك وحسب. نظَرَت إلى ساعة معصمِها قبل أن تُردِف. وعدتَهُما البارحة بأخذِهِما إلى البحر، هل نسيت؟تسارع وجيبُ قلبِه إزاء سماع الكلمة. البحر ؟ قال مستفهِمًا وهو يُبحلِق في ثيابِ الصَّغيرَين والعَوَّمات تُحيطُ أكتافهمـا. التفـتَ لزوجتـه. وعدتَهُما نزولًا عنـد إلحاحِك ولكن. بترَ جُملته وأشـارَ إلى صَغيرَيه بيدِهِ أن يقترِبا. نزَعَ العوَّامات من أكتافِهِما وأمرهُمـا بتغييـر ثيـاب السِّـباحة. أن نذهـب إلى البحـر لا يعني أنكما سـوف تنـزلان إلـى الماء! قـال بحِدَّة. طأطـأ الصَّغيران اللـذان أمضيا ليلتَهُما البارحة نومًا بثيابِ البحر والعَوَّامات. هزَّت منيرة رأسها آسفةً من دون أن تُعلِّق بكلمة.

علـى السَّـاحِل المحـاذي للمرسـى، جلـسَ ومنيـرة ينظُـران إلى التوأمين الجالسـين يُشـيِّدان بيوتًا مِن الرَّمل وصخور البحر عند التقاء الماء باليابسـة. بقيَ مُتململًا في جلسـتِه مُتأهِبًا لطارئٍ يخشـاه. تُربِّت منيرة على رُكبتِه. لا تُبالِغ. يبدو أنه لا يسمعُ قولَها. لا يسمعُ ضحِكَ

الصَّغيريـن. لا يُنصِـتُ إلى شـيءٍ إلا هديرَ المـوجِ الهادئ يتعاقبُ في إيقـاعٍ رتيـب. بـدا فـي صراعٍ بين أن يُراقِـب توأمَيه أو أن يصرِفَ نظرهُ عـن زُرقـةٍ تواجِهُـه بصدرِها، تلك الزُّرقة التـي تجيء بإخوتِه يومَ غد، يُأدُّون طقسًا قديمًا.

ارتفـعَ البِنـاءُ الطيني أمامه، مرصَّعٌ بالقواقِع التي ثبتها الصَّغيران على واجِهاتِه. انسحبت مياهُ البحرِ بسرعةٍ مُريبة، خلَّفت وراءها أرضًا سَـبِخة. التفتـا يتتبَّعـان وِجهـة الماءِ. ظهرت سـفينةٌ عِملاقةٌ في الأُفُق، حالَت دونَ إدراكِ مياهِ المَدِّ للسَّـاحِل. موجَةٌ عملاقة ظهرت من وراء السَّـفينة. تقترب بسـرعة، تنقضُّ على رمالِ السَّـاحل تنثرُ زبدًا يُخالِط طينًـا علـى الزَّوجين. هرعت منيـرة تخوضُ في البحر المُضطرِب إلى ما فوق صدرِها. تشـنَّجَ جسـده. تعالت صيحات الصَّغيرَين. يُبه! يُبه! اصفرَّ وجهُهُ وهو ينظرُ إلى غيابِهما الوشيك. أرادَ أن يمضي وراءهما فـي التِّيـه الأزرق لعلَّـهُ يُعيدهما إلـى حُضنِه. نهضَ عن الأرضِ. وقفَ على أطرافِ أصابعِه ينظرُ بعيدًا. ابتلعتهُما الزُّرقة. لم يعُد يراهُما. أخذَ يُلوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رحَّال.. زينة! ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون.

ينهـضُ منـوال غارِقًـا في عرقِه إثر اكتمالِ كابوسِـه. لاهِثًا يعتدِلُ جالِسًا على سريرِه فاتِحًا عينَيه على وسعِهِما. أدارَ وجهَهُ شطرَ نافِذَتِه. زينـة الجديـدة مـا زالت رابضة هُناك. أسـرعَ خُطـاهُ إلى خزانةِ الممر. فتحها ومدَّ كفًّا مُرتعشـة بين أشـيائِه القديمة. أمسـكَ بجريدةٍ مُصفرَّة أوراقها لم يفتحها إلا مرَّة واحدة صباحَ أمسٍ موغلٍ في البُعد. بحلقَ في خبرٍ احتلَّ صدرَ الصَّفحةِ الأولى.

في ليلة البحث الثانية

الإدارة العامة لخفر السواحل: العثور على الطفلة المفقودة

كتب المحرِّر الأمني

بعد مرور ما يقارب ست وثلاثين ساعة على حادثة اختفاء توأميّ ساحل المرسى وبعد العثور على جثة الطفل الغريق (ر.م) عثر رجال خفر السواحل ليلة أمس على الطفلة (ز.م) في حالة صحية حرجة وهي متشبثة بحبل إحدى عوامات السلامة الشرقية على بعد 800 ياردة جنوب شرقي ساحل المرسى، وقد أكد الأطباء أن حالة الطفلة مستقرة في وحدة العناية الفائقة في مستشفى العاصمة، فيما أكد فريق أطباء مختص صعوبة الحالة إثر تلف خلايا المخ بسبب انقطاع الأكسجين. وذكر مدير الإدارة العامة لخفر السواحل العميد بحري عبدالعزيز التميري أن وحدات البحث والإنقاذ والتي تتكون من 7 زوارق ومروحيتي مراقبة لم تعثر في البدء.. **التتمة (ص)** 3.

أطبق منوال الجريدة. استدارَ يمشي ببطء نحو النافِذة في غرفتِه. وقفَ على دكَّتِها يرنو إلى تلاقي البحرِ بالسَّماء في حين استقرَّت الحمامةُ الجديدة زينة على طرفِ الدكَّةِ من دون حراك. أحكمَ قبضتهُ على جريدتِه القديمة. أغمضَ عينيه ثُمَّ..

بقي ساعاتٍ على حالِه تلك.. ثُمَّ..

أخذ يترنَّم وهو يستدعي صوتَ أُمِّه.

يـا نظيـر عيونـي، ودَّعتـك الله، يـا نظيـر عيونـي

نحـت أنـا لـو أبرا، نـوح الحمامة، نحت أنـا لو أبرا

فتـحَ عينيـه التي رأَت كُلَّ شـيء. نفخَ صــدرَه. باعدَ بين ذراعيه. ثنى ساقَيه يهمُّ بالقفز.

غرووووغ.

ثُمَّ..

سَمِعَ طرقًا على باب شُقَّتِه.

لن تتم

الدُّرج السُّفلي

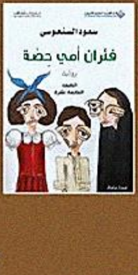
«كلُّ من عاشَ في الدَّار يصيرُ من أهلها؛ حمامُ الدَّار لا يغيب وأفعى الدَّار لا تخون، هذا ما قالتهُ لي بصيرة قبلَ سنتين من يومِنا ذاك. جدَّةُ والدي، أو رُبَّما جدَّةُ جدَّتِه، لا أدري فهي قديمةٌ جدًا، أزليَّة، ساكنةٌ في زاويةِ بهو البيت العربي القديم، ملتحِفةً سوادَها أسفلَ السُّلَّم. لماذا أسفلَ السُّلَّم؟ لم أسأل نفسي يومًا عن مواضع أشياءٍ اعتدتُها مُنذ مولدي، في بيتٍ عربيٍّ تطلُّ حُجُراته الضيِّقة على بهوٍ داخلي غير مسقوف، بهو بصيرة التي لم أرَها تفتحُ عينيها يومًا، كأنما خِيطَ جفناها برموشها منذ الأزل».



صدر له أيضاً عن الدار:







ISBN: 978-614-01-2377-9
9 786140 123779

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com